الفصل السابع

الطرف الآخر من المحيط: الآثار المُهلكة للكراهية في أوروبا

Across the Pond: The Deadly Effects of Hate in Europe

تُعدُّ البيانات manifestoes بمثابة وثائق غير اعتيادية، وبما أنّها تُفيد كمنصَّات للتعبير الأيديولوجي، فإنَّها تعطي لمحة لما يدور داخل عقول مؤلِّفيها الذين يكشفون للجمهور بأسلوب أقرب إلى النثر المبادئ التوجيهية والخصوصيّات التي تشكِّل معتقداتهم. وتُوصف معظم تلك البيانات بكونها إعلانات سياسية، وعلى هيئة رؤًى مبالغ فيها تسعى إلى تحسين المجتمع، ويجري توضيحها عن طريق مبادرات نبيلة يقوم بكتابتها ممثّلون سياسيون ممن يأملون في التأثير على السَّاخطين. وتوجد هناك أيضاً بيانات توصف بكونها شخصيِّة أكثر، وهي عبارة عن تأمّلات تشبه اليوميات يعمل على صياغتها بعض المشاهير الذين يأملون في إيصال بقايا القضية التي يدافعون عنها إلى العالم. وهناك بعض البيانات التي تعدُّ بمثابة الصورة الأوّلية لعالم موجود فقط في عقول المختلِّين.

وإذا كانت هناك سمة واحدة تميِّز البيان، فهي أنَّ مؤلِّفيه ليسوا من الناس العاديّين الذين تتدفّق تطلعاتهم السرِّية لأجل البشرية عن طريق الحبر الذي يملأ صفحات تصريحاتهم، وإنَّما هم المتطرِّفون، والزُّعماء، والمتعصِّبون لآرائهم. وسواء أكانت البيانات جيدة أم سيئة، فإنها تفعل أشياء كبيرة، فقد كان هناك "البيان الشيوعي" The Communist Manifesto لكارل ماركس، وبيان عنوانه "كفاحي" Mein Kampf لأدولف هتلر. أمّا بيان بيرتراند راسِل وألبرت آينشتاين الساعي للسلام Russell-Einstein Manifesto، فهو واحد من تلك التأكيدات الجازمة تماماً كما كان إعلان توماس جيفرسون الخاص بالاستقلال Declaration of Independence.

وإنّه من الغريب إذاً أن يقوم آنديرز بيرينغ بريفيك Anders Behring Breivik، الرجل غير المستقر، وعديم الإحساس، والبالغ من العمر ٣٢ عاماً، الذي كان مختفياً عن العالم من خلال وجوده على ما يبدو في ملجئه المحمي في حي سكوين Skoyen في مدينة أوسلو، بالعمل الدؤوب لمدة تسع سنوات طويلة ليكتب إفادته التي هي أطول ٦٥ مرة من بيان كارل ماركس. وكان بيان بريفيك الذي يتألَّف من ١٥٠٠ صفحة بمثابة "إعلان الاستقلال الأوروبي لعام ٢٠٨٣ "، وكان عبارة عن كتابات غير منطقية ومليئة بالكراهية، التي من شأنها أن ترسم الخطط التي تهدف للقيام بعمل وحشي لم تشهد مثله النرويج منذ الحرب العالمية الثانية.

وجاء عنوان البيان ليعكس العام الذي يُفترض أن تشهد فيه أوروبا الطرد النهائي للمسلمين و"المتثقَّفين الماركسيين" الذين رحَّبوا بالمهاجرين. ويستغرق برنامج التطهير بحسب خيال بريفيك المعقّد والمِعوَج ٧٢ سنة. وعلى أية حال، فقد كانت تلك عملية سيقوم على وضعها في العمل فوراً، حيث كتب قائلاً: "إنَّ القول المأثور 'إذا كنت تريد القيام بعمل ما، فقم به بنفسك' هو قولٌ صحيح الآن كما كان

آنذاك". وأضاف: "أعتقد أن هذا سيكون آخر شيء أدوّنه، واليوم هو الجمعة ٢٢ يوليو (تموز)، الساعة ١٢:٥١"[1].

وبعد ساعة واحدة فقط، أي في الساعة ٢:٠٩من بعد الظهر، جرى تعميم بريد إلكتروني في جميع أنحاء الدول الأسكندنافية، ووصل إلى أكثر من ألف شخص. وكان البريد يحتوي على نسخة إلكترونية من وثيقة بريفيك التي تشبه المجلَّد، وقال بريفيك لمستلمي البريد: "إنه هدية لكم ... وأنا أطلب منكم أن تقوموا بتوزيعه على كل الذين تعرفونهم"[2]. وبعد أن صعد إلى حافلة بيضاء من نوع فولكس واجن كرافتر، قادها إلى منطقة ريغجيرينغزفارتاليت Regjeringskvartalet، وهي المنطقة التي تضم مباني الحكومة، وتقع وسط مدينة أوسلو.

* * *

وتُعدُّ المدينة المزدحمة التي هي بمثابة المركز الحكومي والثقافي لهذا البلد الأسكندنافي موطناً لأكثر من مليون نسمة، وقد تمتعت لفترة طويلة بطابع سلميٍّ. كما تستضيف المدينة حفل توزيع جائزة نوبل في شهر أكتوبر (تشرين الأول)، وتضمُّ معهد بحوث السلام، وكانت موقعاً لاتفاقيات أوسلو الشهيرة، وهي المعاهدة التي حاولت إنهاء سنوات طويلة من الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين من خلال تعزيز الاعتراف المتبادل، ونبذ الإرهاب، والانسحابات العسكرية.

وكانت فصول الصيف في مدينة أوسلو ممتعة، ولم تكن عطلة نهاية الأسبوع قبل الأخير من شهر يوليو (تموز)، ٢٠١١ تُعدُّ استثناء. وكانت الغيوم الركامية البيضاء قد غطَّت السماء متوزعة عبر الفسحة الزرقاء التي لا نهاية لها، على نحو بدت فيه وكأنَّ يداً قد وضعتها هناك، وكانت أفضل باقة جرى اختيارها بعناية عن طريق قوة عُليا، ووُضعت جنباً إلى جنب وكأنّها عملٌ فني. كان الطقس دافئاً، ولكن ليس حارّاً،

ونادراً ما كانت الرطوبة ودرجة الحرارة تمتزجان مع بعضهما لتولِّد مناخاً غير مريح. وفي أكثر الأحيان، كانت الرطوبة تُذعن لدرجة الحرارة لتُشكّل المناخ الأمثل لأنشطة الهواء الطلق، مثل الرحلات، والتخييم، وزيارة المنتجعات الصيفية العائلية، والنزهات.

وكان النرويجيّون، مثل جميع سكان الدول الأسكندنافية، يستمتعون في هذا الوقت من السنة. وبما أنَّهم ليسوا من الناس الرسميِّين أو ممن يمكثون في المكاتب، فقد كان البلد يُغلق بأكمله بحيث يصفه الكثيرون على أنَّه ببساطة "عطلة". أمّا الأكواخ في الغابات، التي أُقفلت خلال أشهر الشتاء القاسية، فقد فتحت أبوابها أمام الأسر التي هربت من مناظر المدينة بحثاً عن مزيد من التضاريس الأرضيّة الوعرة لتُمضي وقتها. وكانت الزوارق، ومنصّات الشِّواء-التي تُعدُّ من المستلزمات الضرورية للإجازة-قد اصطفَّت على أطراف البحيرات، وهي عنصر أساس آخر للعطلة؛ أمّا الجليد الذي كان يُغطِّي سطوحها وجعلها تندمج مع بقية الأراضي البيضاء الثلجية، فقد ذاب منذ فترة طويلة، على الرغم من أنَّ صيحات الأطفال الصغار الذين غطسوا أوّلاً في برك السباحة الطبيعية عن طريق مدفع الكرات أو القلبات الخلفية من منصَّات الغوص الاصطناعية توضح الطبيعة الباردة-إن لم تكن القارسة-للماء.

وكانت أوقات العصر من أيام الجمعة تختفي في نهاية المطاف داخل الأسبوع وعطلة نهاية الأسبوع، حيث يصبح من الصعب على المرء بعد فترات انقطاع عن العمل أن يتذكر بالضبط ما هو ذاك اليوم، كما يصبح من الأفضل على أية حال قضاء جُلَّ تلك المناسبة المريحة بعيداً عن القلق حيال قضايا تتعلّق بالوقت كهذه. ولكن الأمر يختلف عند عدد قليل من الناس غير المحظوظين ممن لا تسمح لهم وظائفهم بمثل هذه النزهات إلى الواحات الساحلية، فإنّهم كانوا يقضون أيام الجمعة، كما هي

عادة، بالتحديق في ساعات اليد، وساعات الحائط، والتسكع بمزاج فاتر تجاه العمل في حين يُتكتك عقرب الثواني نحو الساعة الخامسة بوتيرة تشبه الحلزون. وعلى الرغم من قِصَرها، فإن عطلة نهاية الأسبوع المنتظرة التي تدوم لمدة يومين كانت على الأقل تتيح الوقت الكافي للاستمتاع بواحد من بين عدد من مهرجانات المدينة التي تُقام في الهواء الطلق. وبما أنّ الشمس كانت تبقى ساطعة في السماء خلال ليالي الصيف، وهي ظاهرة مفيدة لمناطق خطوط العرض الشمالية العالية، فهذا الواقع كان يعني أن أواخر المساء في المدينة في كثير من الأحيان تستمرّ حتى الساعات المبكرة، أو حتى منتصف الصباح.

وإلى جهة الشمال شرق من بوابة كارل جوهانز Karl Johans حيث الشارع الرئيس في مدينة أوسلو، وداخل المبنى الزجاجي البني والأبيض الذي كان بمثابة المقر الرئيس لمختلف وزارات الحكومة النرويجية، كان العمال المنهكون خلال أيام الأسبوع يتمتعون بالنظر إلى الساحة المليئة بالأشجار. وكانت هناك نافورة تُصدر الفقاعات خلال فواصل إيقاعية، بحيث تُقدِّم عرضاً فنّياً وساحراً من الهيدروجين والأكسجين. وكان عَلَمُ النرويج، المُعلَّق على قمة عمود في وسط الساحة، يرفرف بكآبة نحو الأسفل، حزناً على ما يبدو على عدم وجود الرياح؛ حيث كان الصليب الأسكندنافيُّ الأزرق، الذي يتمركز إلى طرف العَلَم ويُشير إلى سيادة الدين المسيحي، مُغطًّى في طيّات الغطاء الخلفي الأحمر للراية.

وكانت هناك كاميرا للمراقبة التي التقطت صورة للحافلة التجارية البيضاء عندما اتَّجهت إلى شارع جروبيغاتا Grubeggata. وكانت أضواء التحذير في السيارة تومض، وكانت السيارة الطويلة ذات الأبواب الخلفية المنزلقة تتوقف تارة وتتحرك تارة أخرى، وتبقى أحياناً ثابتة لعدة دقائق. ولم يكن هذا الأمر حدثاً غير اعتيادي، إذ

إنَّ شاحنات النقل، ووسائل النقل الحكومية، ومواكب الشرطة كانت تتردَّد إلى هذا الشارع الهادئ بطريقة مماثلة. وكانت هناك سلسلة من التحرّكات إلى الأمام والخلف، والمحاولات الفاشلة لرَكن السيارة، والالتفاتات المتنافرة قد انقضت إلى أن تمكَّن السائق في نهاية المطاف من إيجاد بقعة مريحة للتوقف، بحيث كانت أمام مبنى الحكومة الرئيس مباشرة.

وخرج رجل من طرف مقعد السائق للسيارة إلى الرصيف الأسود ذو الحصى المضغوط وهو يرتدي عتاد الشرطة المؤلَّف من: قناع واق، وخوذة، وسترة واقية من الرصاص، وحذاء عسكري. ومشى الرجل، وهو يحمل مسدساً في يده، متَّجهاً نحو مربّع هاميرزبورغ Hammersborg، وهو الموقع الذي كان يمكن فقط أن يكون مسرحاً لمشاجرة رهيبة، وذلك بسبب وجود هذا الشرطي المستعد للمعركة، وهو يمشي بسرعة عبر الشوارع في وضح النهار. وعلى أية حال، وبمجرد أن وصل إلى هناك، تباطأت سرعته. وقد كانت المنطقة هادئة تماماً مثل محيطها، وذلك في وقت بعد الظهر من يوم الجمعة في أواخر شهر يوليو (تموز)، وبعد أن فتح باب سيارة كان قد ركنها هناك في وقت سابق من اليوم، خلع أنديرز بريفيك قناع الشرطة وقادها باتجاه بحيرة تيريفيوردن Tyrifjorden، وهي خامس أكبر بحيرة في البلاد، حيث بدا مثل كثيرين آخرين على الطريق متلهِّفاً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في البقعة الصيفية التي تبعد نحو ٢٥ ميلاً إلى الشمال الغربي من مدينة أوسلو.

* * *

لقد كان تأثير الانفجار قويّاً جدَّاً داخل المبنى، حيث أدَّت موجة الصدمة إلى تحطِّم النوافذ في جميع الطوابق. وكانت الشاحنة التي استندت على جانبها قد أخذت هيئة ملتوية ومتفحمة لما كانت عليه سابقاً، بينما كان الدخان ينبعث من محرِّكها. وقد

شبَّ حريق في وزارة النفط والطاقة حيث كانت الحافلة متوقفة، ومع ذلك، فقد كان الشارع خارج مكتب رئيس الوزراء هادئاً على نحو غير عادي. وفي اللحظات الفاصلة بين التفجير الأوّل ووصول طواقم الطوارئ التي سُمعت أصوات صفّاراتها عن بُعد وهي تعلو وتنخفض بينما تقترب شيئاً فشيئاً، كان أصحاب الأعمال ورواد الشارع على حدٍّ سواء يمشون من بين الحطام المليء بالأتربة غير متأكدين مما يحدث. وكان هناك رجل يهرول وهو يقفز فوق شظايا الزجاج، والعُلب الملتوية، والأخشاب المحطّمة، وهو في طريقه–على ما يبدو–إلى نهاية خط السباق الذي لم يكن يعرف رُعاته ما قد حدث للتو. أمّا الآخرون الذين كانوا يقفون وسط الأنقاض، فقد قاموا بإخراج هواتفهم المحمولة لالتقاط الصور وعمل التسجيلات الخاصة بهم. وكانت الرائحة الكريهة من الأسمدة وزيت الوقود المحترق قد انبعثت في الهواء الضبابي. وكان ثمانية أشخاص قد لقوا حتفهم، وأُصيب عشرات الآخرين وتقطّعت أوصالهم، حيث جرى سحبهم من المكاتب التي كانت ستائرها قد تقوّست داخل النوافذ المحطَّمة.

وبعد ساعة ونصف من الزمن، وبعد أن استقرَّت فرق الطوارئ والأمن في معسكرات دائمة على طول الشارع الذي وقع فيه الانفجار، استقلَّ أنديرز بريفيك العبَّارة البحرية إم إس ثوربيورن MS Thorbjorn، وهي عبَّارة ركَّاب صغيرة يملكها "اتّحاد الشبيبة العمَّالي" Worker's Youth League، وهي مجموعة تابعة لحزب العمل في الدولة. وعند وصوله إلى جزيرة أوتويا Utoya، وهي جزيرة صغيرة يملكها الاتّحاد وتُعدُّ الموقع السنوي للمخيَّم الصيفي، غادر بريفيك السفينة–وهولا يزال في زي الشرطة الكامل –وأشار إلى روّاد المعسكر والمُرشدين لكي يتجمَّعوا حوله، وأخبرهم أنَّ تفجيراً قد حدث للتوّ في أوسلو وأنَّه قد حضَر إلى هناك لضمان سلامتهم. وأفاد أحد الطلاب الذي كان يغادر الجزيرة لحظة وصول بريفيك قائلاً: "لقد ألقينا عليه

التحية عندما ترجَّل من العبَّارة، وقد أعجبنا تجاوب الشرطة السريع كونهم قدموا لطمأنتنا بخصوص سلامتنا كوننا سمعنا عن التفجير الذي وقع في أوسلو".

ومع سماع دويِّ طلقة الرصاصة الأولى، سقط أول القتلى على الأرض. ووصل عدد القتلى إلى ثلاثة بعد طلقتين إضافيتين. وسرعان ما تحوَّل حشد الشباب الذي تجمهر حول الشرطي النرويجي إلى جثث هامدة. وبدأ الدم يسيل من الجروح الكبيرة التي بلغت حجم كرة لعبة الغولف التي سبَّبتها رصاصات "دمدم" dum-dum المتفجِّرة، كما شكَّل الدم سخاماً بامتزاجه مع العشب والتراب. وتوسَّل بريفيك إلى الشبان قائلاً: "لا تخجلوا، تعالوا والعبوا معي". وذكر بريفيك هذه الكلمات قبل أن يقوم بتفريغ طلقات قاتلة أخرى من فوهة بندقيته الأوتوماتيكية من نوع ٢٢٣. روجر Ruger.

وكانت المجزرة حدثاً بطيئاً ومنهجيّاً، إذ كانت بالكاد تكون حالة من الهياج المهووس لتطاير الذخيرة، حيث كان بريفيك قد خطَّط بعناية لكل طلقة. لقد قرَّر أن يكون مصير أهدافه من الشباب في عداد الموتى، وأنَّ الرشق العشوائي للرصاص في الهواء لن يضمن له هذا الأمر، إذ حان وقت الدقّة في التنفيذ. وذكر أحد منظِّمي المخيَّم قائلاً: "لقد جاء هذا الرجل وقال إنَّه من الشرطة، وقال لنا إنه يريد أن يساعدنا ويتأكَّد من أنَّ الجميع بخير، إلاّ أنَّ هذا الرجل الذي كان يرتدي زيَّ شرطي، كان هو مطلق النار". وأضاف: لقد "كان بحوزته مدفعاً رشاشاً، ولكنّه لم يضعه في حالة الإطلاق الآلي للرصاص، وإنّما في حالة الإطلاق الفَردي، كما أنَّه لم يكن يُطلق النار كالمسعورين أو بهدف إثارة الذعر، فقد كان يطلق النار لقتل الناس، وذلك عن طريق إطلاق الرصاصات الواحدة تلو الأخرى"[3].

وعندما توجَّه بريفيك نحو الخيام المجاورة، كان بعض الموجودين في المخيَّم يأملون في حماية أنفسهم من حمام الدم هذا، إلاّ أنَّ بريفيك تبعهم وهو يمشي بدون

مبالاة باتجاه أماكن نومهم. لقد كان يتوقع فرارهم بحثاً عن الحماية؛ لذلك كان يفتح أبواب الخيمة ويُحكم سلاحه القاتل بداخلها. وكان الصمت يسود بعد كل سلسلة سريعة من إطلاق النيران، وإذا ما اعتقد أنَّ هناك بين كومة الجثث من يمكن أن يكون على قيد الحياة، فإنه كان يدفع جوانبهم بحذائه العسكري الأسود ذو الأصابع الفولاذية. وإذا كان هناك أيُّ صوت لزفير، أو تنفُّس، أو تكشيرة في الوجه، فإنَّ وابل الرصاص يستمر حتى يسود الصمت.

وركض عدد ممن سوف يصبحون قريباً من الضحايا عبر أرض المخيم باتجاه البحيرة، وكانوا يصلّون لأن تقوم المياه، والأغصان، والصخور، بحمايتهم من الجحيم على تلك الأرض. لكن بريفيك كان يمشي متمهِّلاً نحو الجسر وكأنه إنسان آليٌّ، وقد تملَّكته حالة من فقدان المشاعر؛ إذ كانت الأشلاء من حوله تشكِّل دافعاً إضافيّاً لمواصلة برنامجه. وعند عثوره على مكان اختبائهم، كان بريفيك يسحب بندقيته إلى صدره، وينظر من خلال موجِّه التصويب تماماً مثل زائر مدن الملاهي الذي يطلق النار على البط في أحد أكشاك الجوائز، حيث كان يختار أهدافه واحداً تلو الآخر، وكان دمهم يشكِّل بقعة قرمزية في الماء الأزرق الداكن.

لقد كانت مأساة لا يمكن تصوُّرها. وبمجرد أن هدأت المجزرة في نهاية المطاف، كان هناك على الجزيرة التي تكسوها الغابات ٦٩ قتيلاً ونحو ٧٠ جريحاً. ووصل عدد الضحايا من الهجمتين-أي حادثة مطاردة روّاد المخيم في جزيرة أوتويا وحادثة انفجار السيارة المفخَّخة وسط المدينة-إلى ما يزيد عن ٢٠٠ شخص، حيث إنَّ ٧٧ منهم لقوا حتفهم وأصيب أكثر من ١٥٠ آخرين[4].

* * *

تُعدُّ كلمة "مفرد" الوصف الأفضل لرؤية أنديرز بيرينغ بريفيك. وعلى الرغم من أنَّ التقييمات النفسية في الأسابيع والأشهر التي تلت عمليات القتل المنهجية قد أشارت إلى وجود ميول الفصام الذي ربما يكون قد أدى إلى قيامه بهذا الصخب العنيف، إلاّ أنَّ السؤال المطروح هو ما إذا كان الرجل الذي قضى تسع سنوات وهو يدبِّر للقيام بخطَّته الباردة والمنطقية ومن ثم يقوم بتنفيذها بأقصى درجة من الدقة والصبر يمكن حقّاً أن يكون ضحية لاضطراب عقلي لا يمكن السيطرة عليه. لم يُنه بريفيك حياته بالانتحار، كما أنَّه لم يخجل مما فعل، ولم يكن خائفاً من العقوبة التي كان يعلم أنه سيواجهها.

كان بريفيك يرى نفسه زعيماً في العصر الحديث من فرسان الهيكل Knights Templar، وهي جماعة عسكرية مسيحية من العصور الوسطى، ومقرُّها في جبل الهيكل في القدس، تعمل على حماية المسيحيين المسافرين عبر الأراضي المقدسة. وقد قامت هذه الجماعة المعروفة بمهاراتها القتالية ذات مرَّة بذبح قوات عربية وإسلامية لأنها طالبت بحقِّها حيال مدينة القدس. ويعتقد بريفيك أنه قام بالاشتراك مع تسعة آخرين "بإعادة تأسيس" القبيلة، وكشف في بيانه–الذي يُظهر غلافه الصليب الأحمر الكبير الخاص بالجماعة–أنَّه قد منح نفسه رتبة "فارس قاض"[5]. وكتب يقول: إنَّ "هدفنا هو السيطرة السياسية والعسكرية على بلدان أوروبا الغربية وتطبيق أجندة سياسية وثقافية محافظة"[6].

وكان بريفيك يشعر بأنَّ ثقافة الشمال الأوروبي على حافة الانقراض، وأنَّ من واجبه الحفاظ عليها. وتبجَّح بريفيك قائلاً: "إنني فخور جداً بتراث الفايكينغ Viking الخاص بي. أمّا اسمي، بريفيك، فهو اسم موقع في شمال النرويج، ويمكن تقفّي تاريخه إلى قبل عصر الفايكينغ أيضاً"[7]. وكان ينظر إلى نفسه على أنَّه من أصول نرويجية "صافية"، إذ إنَّ أصوله لم تتلطَّخ بالأعراق المختلطة التي يتعذَّر إصلاحها. لقد كان

بريفيك مهووساً بمسألة النقاء العرقي لدرجة أنَّه خضع ذات مرَّة لجراحة تجميلية بهدف جعل ملامحه تبدو من أصول آريَّة على نحو أكبر. وأشار أحد أصدقائه قائلاً: "أتذكر أننا كنا في حفلة، وأخبرني أنَّ جرَّاحاً تجميليّاً قام بإجراء عملية جراحيّة لأنفه وذقنه في أمريكا"[8]. وقد ذكر مسؤول في المخابرات النرويجية أنَّ ملامح القاتل البالغ من العمر ٣٢ عاماً كانت غير سامية على نحو واضح، وأنَّ هتلر كان من الممكن أن يستخدمه كنموذج على ذلك.

لقد كان هذا الشخص ذو الشعر الأشقر والعيون الزرقاء من أعداء الإنسان ممن يكرهون تكافؤ الفرص ومن المستهزئين بما هو مختلف، كما كان يبغض التعدُّدية الثقافية ويمقت طموحات العولمة. وكانت والدته التي تعمل ممرضة قد أنشأت ولدها في أحد الأحياء الغنية غرب مدينة أوسلو، وقد كانت تحرُّرية للغاية فيما يخصُّ ما يستسيغه ولدها. "ولم يكن بريفيك موافقاً" على تنشئة والدته له، إذ كان يلقي عليها اللوم كونها كانت سبباً في تأنيثه. وكما كتب المؤلف هينينغ مانكيل Henning Mankell، فإنّ بريفيك كان على هيئة شخصية "دون كيشوت الذي كان يصوِّب بندقيته بدم بارد على الناس الذين يعيشون ويتنفَّسون"[9].

وعلى أية حال، فقد كان للمسلمين مكانة خاصة في عالم بريفيك المريض، حيث حذَّر من أنَّه عن طريق الهجرة التي لا يمكن السيطرة عليها والتنشئة سوف يقومون قريباً بالاستيلاء على القارة-أي قارَّته-ويجعلون السكان البيض من العرق الآري شيئاً من الماضي. والشيء الذي سوف يجعل الأمور أكثر سوءاً وفقاً لاعتقاده، هو أنَّ الجينات الخاصة ببلدان الشمال الأوروبي هي جينات متنحِّية، وأنَّ أيَّ خلط للأعراق الذي سيحدث بالتأكيد مع الفتح الإسلامي سيكون بمثابة انتحار عرقي وثقافي إذا لم يجر كبحه[10].

لقد كان ذلك حالة من "الجهاد الديموغرافي"[11]، حيث أشار بريفيك إلى أنها ليست المرة الأولى التي يكون فيها مستقبل الحضارة الأوروبية البيضاء على حافة الانقراض. وفي العام ١٦٨٣، وذلك في معركة فيينا، اشتبكت القوات المسيحية مع الإمبراطورية العثمانية في مجابهة مطوَّلة وتاريخية. وأدَّت هزيمة العثمانيين إلى التأكيد على أنَّ أوروبا لن تصبح جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية. أمّا التاريخ الذي يَظهر في عنوان بيان بريفيك –أي العام ٢٠٨٣–فإنه يُشير إلى الذكرى الـ ٤٠٠ لهذه المناسبة. لقد كان بريفيك يعيد كتابة التاريخ، حيث يقوم بشنِّ حرب تسعى لحماية النرويج مرة أخرى من تأثير الإسلام الشرير والزاحف، وذلك وفقاً لتصوّراته[12].

وقد بدا هَوَسُ بريفيك بتقفِّي الإحصاءات المتعلّقة بذلك التأثير جليّاً في الجداول والرسوم البيانية التي اصطفَّت على صفحات بيانه. وأشار إلى أنَّ كوسوفو، ولبنان، وكشمير، وحتى تركيا تشهد طفرات في عدد السكان المسلمين، وأنَّ العملية ذاتها كانت تحصل في أوسلو وأماكن أخرى في أوروبا. وسأل بريفيك قائلاً: "أروني بلداً عاش فيه المسلمون في سلام مع غير المسلمين من دون أن يقوموا بشنِّ الجهاد ضد الكفَّار (الذمِّيَّة، أو الذبح المنهجي، أو الحرب الديموغرافية)؟ هل يمكنكم أن تعطوني مثالاً واحداً فقط على مكان جرى فيه استيعاب المسلمين بنجاح "؟ وأضاف قائلاً: "كم من الآلاف من الأوروبيين يجب أن يموتوا، وكم من مئات الآلاف من النساء الأوروبيات يجب أن يتعرَّضن للاغتصاب، والملايين الذين ينبغي أن يتعرَّضوا للسرقة والتخويف قبل أن ندرك أنَّ مسألة التعددية الثقافية والإسلام لا يمكنها أن تتحقَّق"؟[13]

وكانت المفارقة الكبيرة في كل هذا الأمر هو أنَّ حمام الدم الذي سبَّبه بريفيك لم يكن موجَّهاً ضدَّ المسلمين، بل إنّما ضدَّ الناشطين الشباب النرويجيين الذين كانوا يشاركون في معسكر خاص بحزب العمل. ومع ذلك، فقد كان هناك ارتباطٌ ما،

حيث يعتقد بريفيك أنَّ حزب العمل في البلاد، ومن خلال سياساته وتوجُّهاته الليبرالية تجاه التعددية الثقافية، قد عرقل بحثه عن بقعة في الشمال موحَّدة عرقيّاً وذلك من خلال سماحه بهجرة المسلمين. ولذلك؛ كان الكابوس الذي أطلقه بريفيك يُعدُّ عملاً انتقاميّاً ضدَّ الحزب الذي اتَّهمه بريفيك بارتكاب الخيانة. وكان بريفيك قد أخبر أحد القضاة قائلاً: "إنني قائد عسكري في حركة المقاومة النرويجية وفرسان الهيكل النرويجي"، وأضاف: "إنني أعترض على [المحكمة] لأنكم تلقيتم تفويضكم من المنظمات التي تدعم إيديولوجية الكراهية [و] لأنها تدعم التعددية الثقافية. وإنني أعترف بالأفعال ولكنني لا أقرُّ بالذنب"[14]. ووصف بعض المراقبين بريفيك بأنه قاسي القلب ويفتقر للأحاسيس الإنسانية، كما ذكر أحد الأقارب لإحدى الضحايا قائلاً: "كنت أتمنى لو بدا وكأنه وحش، ولكنه ليس كذلك"، وأضاف: "كان الأمر سيكون أسهل بكثير لو بدا على هيئة وحش"[15].

* * *

"يمكنكم تجاهل الجهاد، ولكنكم لا يمكنكم أن تتجاهلوا عواقب تجاهل الجهاد"، هكذا علَّقت باميلا جيلير في أعقاب هجمات أوسلو، وقد أرفقت شريط فيديو قامت بوضعه على موقعها على الإنترنت يصوِّر تظاهرة مؤيدة لحماس في شوارع العاصمة النرويجية في العام ٢٠٠٩ [16]. وبدت الكارثة الأخيرة من وجهة نظر جيلير على أنَّها من عمل المشتبه بهم المعتادين. وصرّحت بغضب وهي تدفع بتكهِّنها "بأسلمة" الهجمات إلى مستوى قبيح أكثر، حيث قالت: "إذا سمعتُ مراسلاً آخر لأحد شبكات التلفزيون أو الراديو وهو يشير إلى محمد باسم 'النبي محمد'، فإنني أعتقد أنني سوف أتقيَّأ، فهو ليس نبيكم أيها الحمقى"[17].

وعندما وصل خبر المجزرة التي وقعت في النرويج إلى الولايات المتحدة، لم يتمكَّن اليمين المتطرف أن يقاوم الرغبة في إلقاء اللوم على المسلمين. ووفقاً لاعتقادهم، فإنَّ هذه الجريمة الوحشية لا تنسجم مع التخطيط المعرفي للأوروبيين والأمريكيين من غير المسلمين. وعلى الرغم من أنَّه لم يكن قد أُعلن عن الخلفية العرقية والدينية لمنفِّذ الاعتداء بعد، إلاّ أنَّه لم يكن هناك قصورٌ في التكهّنات، إذ إنَّ الأدلَّة لم تكن تُعدُّ شرطاً مسبقاً لمثل هذه المحاولات. لقد كان نطاق الهجومين كافياً عند بعض الناس لكي يقوموا بالمراهنة العلنية التي تُثبت صحَّة شكوكهم حول وجود صلة لا تنفصم بين المسلمين والإرهاب.

وأشارت لورا انغراهام من شبكة فوكس نيوز التي نابت عن مقدّم البرامج بيل أورايلي، وذلك في مقدّمة روايتها حول المجزرة وهي تقول: "لقد حدث هجومان قاتلان في النرويج، فيما يبدو أنه مرة أخرى من صنيعة المتطرِّفين المسلمين"[18]. وفي صحيفة الواشنطن بوست، ناقشت المدوِّنة المحافظة جينيفر روبين (التي تعرَّضت للانتقاد ذات مرَّة بسبب إعادة تغريد مقالة دعت إلى الإبادة الجماعية للفلسطينيين) وجود "ارتباط جهاديٍّ محدَّد". وكانت قد صرَّحت بعد البحث عن احتمال وجود صلة بتنظيم القاعدة، وهي تقول: "هذه تذكرة تثير الانتباه لأولئك الذين يعتقدون أنَّ شنَّ حرب ضد الجهاديين هو أمرٌ باهظ الثمن للغاية"[19].

وعلى نفس المنوال، كتبت صحيفة وول ستريت جورنال" التي يملكها روبرت مردوخ" حول إمكانية وجود علاقة للمسلمين، حيث أشارت إلى أنَّ الجدل حول الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية، التي نَشرت صورة كاريكاتورية للنبي محمد قد أثارت حملة إرهابية شاملة ضد الدنمارك. ووفقاً للتكهنات في المقالة الافتتاحية، فإنَّ النرويج كانت أيضاً على لائحة الاستهداف من المحاربين الجهاديين الذين يحتقرون

"الالتزام بحرية التعبير والضمير" في البلاد، وأنَّها كانت "تدفع ثمناً باهظاً" بسبب تلك المثل العليا[20]. أمّا صحيفة "نيويورك تايمز"، التي بالكاد تكون منبراً لخطب المتخوِّفين من الإسلام، فقد ذكرت أنَّ "هناك سبباً كافياً يبعث على القلق من أن يكون الإرهابيون مسؤولين عن الاعتداء، ففي العام ٢٠٠٤ ومرة أخرى في العام ٢٠٠٨، كان الزعيم رقم ٢ في تنظيم القاعدة، أيمن الظواهري، الذي تولى القيادة بعد وفاة أسامة بن لادن، قد هدَّد النرويج بسبب دعمها للعملية العسكرية التي نفَّذها حلف شمال الأطلسي في أفغانستان بقيادة الولايات المتحدة"[21].

لقد قيل الكثير عن الطرق المختلفة التي تربط المسلمين، بإنصاف وبدون إنصاف، بالإرهاب، ولا سيما في الحقل المعرفي لعالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. لكن القضية الخاصة بهجمات أوسلو تصف مثالاً، حيث تصبح كلمة "الإرهاب" بلا معنى تقريباً. وعلى الرغم من الرغبة النهمة من بعض اليمينيين لاستخدامها على نحو مترادف مع كلمة "المسلمين" أو "الإسلام"، فإنَّ شخصيات على غرار الشاب ذي الشعر الأشقر، والأزرق العينين، والمسيحي الأبيض، أي أنديرز بريفيك، قد بدَّدت هذا الاحتمال، وكان الحال نفسه ينطبق على نظيره الأمريكي والسلف، تيموثي ماكفي، الذي ارتكب جريمة مدينة أوكلاهوما. إنَّ هؤلاء الرجال، وعدد من الأشخاص الآخرين من أمثالهم، قد أظهروا أنَّ غير المسلمين قادرون على ارتكاب الفظائع التي غالباً ما تنسب للمسلمين حصراً.

وتُعدُّ الفكرة من وجهة نظر اليمين المتطرِّف من الأفكار المرعبة، إذ كيف يمكنهم أن يميزوا أنفسهم عن مجموعة أصبح من الممكن أن يكون لهم ارتباط معها، وذلك استناداً إلى تصرفات قلَّة هامشية؟ وكانت إحدى الطرق التي تحقِّق لهم ذلك هي النأي بأنفسهم عن كلمة "إرهابي". وبالنهاية، فإنها حقاً مجرد مصطلح كانوا

يستخدمونه لوصف أعمال العنف التي تنبع من التفسيرات المتشدِّدة للإسلام. وصرخ المضيف في شبكة فوكس نيوز بيل أورايلي في إحدى المرّات قائلاً: "لقد قتلنا المسلمون في الحادي عشر من سبتمبر"[22]. أمّا زميله برايان كيلميد Brian Kilmeade، فقد انبرى في وقت لاحق للدفاع عنه، وقال صراحة: "كل الإرهابيين مسلمون"[23]. وعلى ما يبدو، فإنَّ الإرهاب لم يكن العنصر السام، وإنَّما كان مجرد وسيلة للتعبير عن ذلك. لقد كان هناك، استناداً إلى منطق أورايلي وكيلميد، شيء فريد حول الإسلام بحيث تتأصَّل فيه الاستعراضات الوحشية للعنف.

وعندما تعلَّق الأمر بمأساة أوسلو، أعرب أورايلي عن غضبه الشديد حيال قيام بعض النقاد والمحلِّلين بالإشارة إلى دين بريفيك المسيحي. ومن خلال مناورة تهدف إلى إبعاد فكرة أنَّ سفَّاح النرويج كان شخصاً ينتمي إلى الديانة نفسها التي يؤمن بها أورايلي، فقد قام هذا الأخير بطرده لفظيّاً من هذا الدين، حيث أشار إلى أنَّ "بريفيك ليس مسيحياً". وأضاف قائلاً: "هذا مستحيل، إذ لا يمكن أن يكون هناك أحد يؤمن بيسوع المسيح ويقوم بارتكاب جريمة القتل الجماعي. ومن الممكن أن يكون الرجل قد أطلق على نفسه صفة المسيحي على شبكة الإنترنت، إلاّ أنَّه بالتأكيد لا ينتمي إلى ذلك الدين"[24]. أمّا مقدّمة البرامج لورا انغراهام، فقد أعلنت في حلقة من برنامج "فوكس والأصدقاء" أنَّ "فكرة أن يكون بريفيك بأية حال من الأحوال شخصاً ممن يمثِّلون المسيحيين هو أمر سخيف ومثير للسخرية". ومن وجهة نظرها، فإنَّه لا يمثِّل "أي تيار سائد أو حتى مكانة هامشية في المجتمع المسيحي"[25]. وسريعاً، قامت وسائل الإعلام المعروفة التي أشارت في البداية إلى أنَّ الهجوم كان من صنيعة الإرهابيين المسلمين بالتراجع عن ادِّعاءاتها، ولكن ليس بالمُطلق.

وكانت جينيفر روبين Jennifer Rubin قد صحَّحت من افتراءها الأوَّلي، ولكنها لم تفعل ذلك حتى أجبرها وجود احتجاج عامٍّ حيال حرصها على الإشارة إلى وجود خطر إسلامي. وكتبت تقول: "إنَّ الشكوك الأوَّلية بأنَّ الهجمات قد جرى ربطها بمخطَّط تفجير جهادي في أوسلو في العام الماضي، أو المحاكمة النرويجية الأخيرة لإرهابي عراقي لم تصمد". ومع ذلك، فإنَّ اعترافها لم يصل إلى أبعد من ذلك. وحتى عندما كان المسلمون ليسوا في موضع يستحقّون فيه اللوم، فإنَّهم كانوا مذنبين حيال شيء ما، حتى لو كان هذا الشيء مجرد وجود اشتباه محتمل: "إنَّ عدد الجهاديين الذين يهدفون إلى قتل الأمريكيين أكبر من النرويجيين الشقر، وينبغي علينا أن ننتبه إلى التهديدات المنهجيَّة والأكثر قوة التي تنبع من حرب أيديولوجية مع الغرب"[26].

وقد قامت صحيفة "نيويورك تايمز" بتغيير تقييمها الأوَّلي بطريقة مشابهة كالآتي: "يقول خبراء الإرهاب إنَّه حتى لو استبعدت السلطات في نهاية المطاف الإرهاب الإسلامي؛ كونه السبب في الاعتداءات التي حدثت يوم الجمعة، إلاّ أنَّ هناك أنواعاً أخرى من الجماعات أو الأفراد التي تقوم بمحاكاة الوحشية والهجمات المتعدِّدة المرتبطة بتنظيم القاعدة ". وأخبر برايان فيشمان Bryan Fishman، وهو باحث في مكافحة الإرهاب فـي "مؤسسة أمريكا الجديدة" في واشنطن، الصحيفة أنَّه "إذا تبيّن حقّاً أنَّ الشخص يمتلك دوافع سياسية، فهذا الأمر يُظهر أنَّ هذه المجموعات تتعلَّم مما يفعله تنظيم القاعدة"[27]. ووفقاً للمقالة، فقد كان هناك في البداية ما يكفي ليستدعي وجود القلق من أن يكون الإرهابيون متورطين. وبعبارة أخرى، عندما تبيَّن أنَّ المسلمين لم يشاركوا لا في التفجيرات ولا في إطلاق النار، فإنَّ ذلك، بحكم التعريف، كان يعني أنه لا يوجد عمل إرهابي. وعلى النقيض من ذلك، عندما جرى الاعتقاد في البداية بأنَّ المسلمين قد شاركوا، جاءت الإشارة إلى أنَّ الهجمات التي

حدثت في النرويج كانت، في الواقع، أعمالاً إرهابية. وتحسَّر المدوِّن والباحث الزائف روبرت سبنسر وهو يسعى جاهداً، على ما يبدو، للعثور على ما يربط الحادثة بالمسلمين، حيث كتب قائلاً: "يبدو أنَّ أحداً لم يتساءل فيما إذا كان الشخص معتنقاً جديداً للدين"[28]. أمّا المدوِّنة باميلا جيلير، التي قامت بالاشتراك مع سبنسر باختلاق الهيجان العام الذي اندلع حيال إنشاء المركز الاجتماعي المعروف باسم بارك ٥١، فقد سخرت من أولئك الذين انتقدوها، حيث كتبت وهي تقول باستهزاء: "ولكن تذكَّروا، الجهاد ليس هو المشكلة"، وأضافت ساخرة: "إنَّ هجمات ٩/١١ في نيويورك، و٧/٧ في لندن، و٣/١١ في مدريد، وفي بالي، ومومباي، وبيسلان، وموسكو ... ليست هي المشكلة، بل إنّما 'الخوف من الإسلام' هو المشكلة. وأريدكم أن تُكرروا من بعدي حينما تقومون بدفن الموتى،'الخوف من الإسلام' هو المشكلة، 'الخوف من الإسلام' هو المشكلة "[29].

* * *

عندما جرى الانتهاء من بناء سجن إيلا ILA –وهو مبنى عادي من القرميد مؤلف من خمسة طوابق في منطقة باروم Barum وكان يبدو على شكل مهجع أكثر من كونه سجناً نسائيّاً– في العام ١٩٤٠، كانت ألمانيا النازية في طريقها لغزو النرويج. وكانت تخوم الهيكل المؤسَّسي المربَّع وممرّاته قد تلاقت في زوايا مثالية. أمّا السياج –الذي كان على شكل أسلاك ملفوفة بعضها على بعض وتحيط به من جميع الجوانب– فقد كان موحَّداً ومستقيماً، إذ لم يكن هناك عيب واحد من شأنه أن يُعطِّل تماثل الموقع. لقد كان يبدو تماماً على الهيئة التي ينبغي أن تكون عليها أوروبا؛ أي كان نموذجاً، إلى حدٍّ كبير، للتجانس المتصوَّر للقارة. كانت تلك الفكرة موجودة على الأقل في ذهن

هتلر الذي-إثر قيامه بتدشين حملة الإبادة في النرويج-عمل على تحويل البناء إلى معسكر اعتقال.

وكان آنديرز بريفيك قد احتُجز-على نحو مناسب بما يكفي-داخل الشكل الحديث للمُنشأة، ولم يكن يرتدي ملابس السجن التقليدية، بل بدلة حمراء من ماركة "لاكوست" Lacoste كان قد أصرَّ على ارتداءها، حيث كان مهووساً بالحفاظ على كلِّ جانب من جوانب صورته، بما في ذلك صوره التي جرى نشرها بين الناس. وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام ٢٠١١، قام فريق من الأطباء النفسيين بزيارته في زنزانته في سجن إيلا، وأعلنوا فيما بعد أن بريفيك كان يعيش في "عالم وهمي" وأنّه شخص مصاب بانفصام الشخصية وجنون العظمة، ومفصول عن الواقع[30]. ووافقت لجنة الطب الشرعي وقضت بأنَّ الحالة العقلية السيئة عند بريفيك هي المسؤولة عن الفعل الشنيع الذي قام به. وقد بدا التقييم منطقيّاً في ذلك الوقت، إذ إنَّ الأفراد العقلاء، بحسب الاعتقاد، لا يستسلمون للساديّة والشر، وإنَّه على الرغم من الطريقة المنطقية والمنضبطة التي نفَّذ فيها بريفيك خطته، فإنَّ الطريقة الوحيدة الممكنة لاستيعاب ذلك هي في فصلها عن الأبعاد الإنسانية. وذكر أحد ضباط الشرطة قائلاً: "لقد جاء لتوِّه من العدم"، وأضاف: "يبدو أنَّ هذا الفعل صادر عن شخص مجنون"[31].

ولكن بريفيك لم يأت من العدم، إذ إنَّ بيانه قد أوضح ذلك تماماً. لقد قدَّم البيان الرؤية التي توصلنا إلى الدوافع ومواطن الإلهام التي دفعته إلى حفلته الصاخبة، كما أوضحت تجسيد أيديولوجية الكراهية التي كانت تتحرَّك بسرعة لتتخذ طابعاً مؤسَّسيّاً.

وبالتأكيد، فإنَّ بريفيك وحده هو المسؤول عن تنفيذ مخططه الإجرامي؛ إذ كان هو من قام بشراء المواد، ورَسَم خريطة المعركة، وزرع السيارة المفخخة، وأردى

الشباب في المعسكر قتلى. وإنَّ ما يلي ذلك الفعل لن يجعلنا ننساه. وعلى أية حال، عالم بريفيك كان يعيش على أحلام اليقظة المريضة الخاصة باليمين المتطرِّف،أي أعضاء حزب الشاي، والمسيحيون الإنجيليون، والصهاينة الدينيون من المحافظين المتشدّدين، ومروِّجو الخوف من الإسلام. لقد كانت كلماتهم تُغذّي مخاوفه وتُغيِّر من طبيعتها؛ إذ كانت تشجِّع هواجسه وتبارك شكوكه، كما كانت تملأ صفحات بيانه أيضاً. لقد نهم بريفيك من خطبهم المعادية للمسلمين بكميات كبيرة، وكان يقوم في بعض الأحيان بعملية نسخ فقرات كاملة من كتاباتهم ولصقها داخل مقالته. وحملت تلك الكلمات الأفكار الرئيسة لإثباتاته وبراهينه للعالم بأنَّ "أسلمة" أوروبا لم تكن شيئاً من نسج خياله، بل إنها حقيقة لا جدال فيها. ومن الواضح أنه كان يعتقد أنهم كانوا زملاء سفر على الرحلة نفسها نحو عالم لا وجود فيه للمسلمين.

وتكلّم بريفيك بحماسة قائلاً: "إنني أنصح على وجه الخصوص بكل ما كتبه روبرت سبنسر حول الإسلام"[32]. لقد كان مولعاً بكتابات المدوّن الأمريكي لدرجة أنَّه أعلن أنَّه يستحق الحصول على جائزة نوبل. ولو كان هذا التعليق قد صدر عن أي شخص آخر، لكان من المرجّح أن ينتشر على أطراف مدوَّنة سبنسر أو يزيَّن الغلاف الخلفي لكتبه، ليكون بمثابة موافقة مدوّية على التزامه بتعزيز مكافحة الجهاد[33]. أمّا أن يكون التعليق قد صدر من شخص قد تسبب لتوّه-منفرداً-بأسوأ عمل من أعمال إراقة الدماء في النرويج منذ الحرب العالمية الثانية، فلم يكن ذلك أمراً مرحبًا به. وكتب سبنسر قائلاً: "إذا كنت حقاً أشكِّل مصدر إلهام لما قام به (بريفيك)، فإنني أشعر بذات الشعور الذي لا بدَّ قد انتاب فريق البيتلز Beatles عندما علموا أنَّ تشارلز مانسون Charles Manson قد ارتكب جريمة قتل مستوحاة من الرسائل التي اعتقد أنه سمعها في كلمات أغنيتهم". وأضاف قائلاً: "لم يكن هناك وجودٌ لمثل هذه الرسائل،

كما لا يوجد في كتاباتي-لأي شخص عاقل-أي إلهام يهدف لإيذاء أي شخص، إذ إنَّ كتاباتي مكرَّسة باستمرار للدفاع عن حقوق الإنسان لجميع الناس"[34].

وعلى أية حال، تشارلز مانسون لم يُعبِّر بالأفعال عن نظرة عالمية كان فريق البيتلز قد تبنَّاها. وعلى النقيض من ذلك، فإنَّه-وفي حالة من الوهم الكبير والمطلق-قد أقنع أتباعه الواهمين بالقدر نفسه بوجود رسائل خفية في "الألبوم الأبيض" لم تكن موجودة أصلاً. ومن ناحية أخرى، بيَّن سبنسر وجهة نظره حيال التهديد الوشيك للإسلام المتطرف منذ ما يقرب من عشر سنوات. وكان يستخدم بانتظام الصور المبالغ فيها، والتحذيرات المخيفة، كما أعطى لأتباعه صورة عنيفة وغير متوازنة لدين عالمي عازم بقوّة على التدمير، بحيث ينبغي القيام بعمل ما بهدف كبحه. ما الهدف من ترويج كل هذا الخوف؟ وما الذي يجب عمله؟ وإذا كان المسلمون على الهيئة التي صوَّرهم بها، وإذا كانت السياسات العلمانية المتعددة الثقافات مسؤولة عن تأثيرها المزعوم على المجتمع، فما الجواب؟

وعلى الرغم من سعي سبنسر للنأي بنفسه عن القاتل النرويجي، إلاّ أنَّه لم يستطع فعل ذلك، فقد أشار بريفيك في بيانه إلى كتابات سبنسر ١٦٢ مرة،أي بمعدَّل مرة واحدة كل تسع صفحات[35]. وقد كان ذلك اتهاماً صريحاً، إذ إنَّه من بين جميع العلماء الزائفين وممن يهاجمون المسلمين وقع اختيار بريفيك على شخصية سبنسر المحورية في هذا المجال لكي يدعم روايته. وكان سبنسر يُعدُّ المصدر الرئيس من بين الكثيرين. ووفقاً للمنطق الخاص به-الذي افترض أنَّ الآيات العنيفة من القرآن الكريم هي المسؤولة عن التفسيرات المتطرفة التي يتبنَّاها المسلمون المتشدِّدون-فإنَّه كان مذنباً. لقد كانت كتاباته في نهاية الأمر المحفِّز المقدَّس لأعمال العنف التي ارتكبها

بريفيك، إذ إنَّ هذا الأخير لم يقم فقط بابتلاع رواية سبنسر وأمثاله الذين عملوا جاهدين على ترويجها، بل إنَّه دفع بها إلى نهايتها المنطقية.

ويقدِّم الكاتب حسين إيبش تشبيهاً مفيداً (وتصحيحيّاً) على إشارة سبنسر الغريبة لتشارلز مانسون. ويشير إيبش إلى أنَّ الخطاب القاسي المعادي للسامية في القرنين التاسع عشر والعشرين الذي حثَّ على الخوف من اليهود وكراهيتهم، كان يقوم على نحو مشابه بالنَّفي والتنصّل من أي تأثير أو مسؤولية حيال المحرقة اليهودية. ويسأل إيبش: "هل كانوا يتحمّلون المسؤولية المباشرة عن الإبادة الجماعية لليهود"؟ والجواب "لا. ولكن هل يتحملون المسؤولية عن العواقب المنطقية لكلماتهم التي تبنّاها المجانين القتلة على نحو مبالغ فيه؟ والجواب هو: نعم". وعن طريق الدفع بالمقارنة إلى المستوى العقلاني التالي وذي الصلة، فإنَّ الدُّعاة المسلمين المتطرفين والمتشدِّدين الذين يلقون الخطب حول شرور الغرب، ويستحضرون في تجمُّعاتهم الدينية صور "الكفار"، و"المرتدِّين"، و"المنافقين"، ولكنهم لا يُحجمون عن إصدار أوامرهم لأتباعهم المخلصين لكي يقوموا بارتداء الأحزمة الناسفة، وإرسال الأمريكيين والأوروبيين المَقيتين إلى حياة أبدية يمضونها في الجحيم، فإنَّ هؤلاء الدعاة لا يستحقون التبرئة من العواقب المتوقعة للرسالة التي يروِّجون لها[36].

وفي حين شكَّلت كتابات روبرت سبنسر الرسالة التحريضيّة لمشهد العنف الذي نفَّذه بريفيك، إلاّ أنَّ سبنسر كان بالكاد مصدر الإلهام الوحيد. وكما هو الحال عادة مع صناعة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، فالمكان الذي يوجد فيه تاجر خوف واحد، يكون هناك عدة أشخاص منهم، إذ إنّهم يُشكِّلون مجموعة متماسكة تحوم في البقعة نفسها، وتربطهم ببعض فريسة مشتركة. ولم يكن مستغرباً إذاً أن تظهر كتابات باميلا جيلير في اثنتي عشرة قسماً مختلفاً من بيان بريفيك[37]. وعلى الرغم من أنَّها

لم تَعُد جديرة بجائزة نوبل على غرار زميلها سبنسر، إلاّ أنَّها كانت–من وجهة نظر بريفيك–"إنسانة محترمة"[38]. وقد أشار بريفيك بفخر كونه قد تتبَّع مدوَّنتها "أطلس الاستهجان" Atlas Shrugs لفترة طويلة من العام.

لقد سخرت جيلير من نقَّادها في اللحظات الأولى بعد الهجوم وهي تشير بسخرية إلى أنَّ الخوف من الإسلام هو السبب. ولكن جيلير بالكاد تمكَّنت من احتواء نفسها عندما علمت أن لدغة السخرية كانت، وبلمسة لاذعة من القَدَر، قد ارتدَّت عليها. وقد تبيَّن أنّ الخوف من الإسلام هو السبب، كما إنَّ دورها في الترويج له لم يكن بالوسع إنكاره. وبسرعة، قامت جيلير بتشغيل أدوات السيطرة على الضرر، وقدَّمت جواباً مطابقاً لذلك الذي قدَّمه سبنسر قبل ساعات فقط. وقد أعلنت بصوت عال وهي تقول: "إنَّ القضية تُشبه مساواة تشارلز مانسون، الذي سمع في كلمات الأغاني الخاصة بـ هيلتر سكيلتر Helter Skelter دعوة لجرائم مانسون"، وأضافت: "يبدو الأمر وكأنّه يُحمِّل فريق البيتلز المسؤولية، وإنَّه لأمر سخيف على نحو واضح"[39]. إنَّ التشابه في ردود سبنسر وجيلير أمرٌ لا يمكن التغاضي عنه، إذ من غير المرجح أنهما قد توصَّلا إلى قياس مطابق بمحض المصادفة. ومن المعقول أكثر هو أن تكون استجابة سبنسر الأولية لما أسماه "لعبة اللوم" أن تكون قد تلقَّفتها جيلير التي–كانت تعلم أنها هي أيضاً سيجري قريباً توجيه الاتهام إليها في الأزمة الإعلامية الخاصة بالموضوع–بحثت عن طريقة ذكية لحماية نفسها.

وبغض النظر عن الجعجعة التي أثارتها جيلير حيال "الفاشل الخسيس" الذي قادته حالته "غير الآدمية" و"المَقيتة" إلى ارتكاب جريمة قام بها "من تلقاء نفسه تماماً"، إلاّ أنها كانت بالكاد تُخفي فرحتها حيال المشهد المروِّع الذي اقترفه بريفيك. وقد وصفت جيلير مخيم الشباب في جزيرة أوتويا–وهو المرج الأخضر حيث وقع

إطلاق النار- بأنَّه "مركز التلقين المعادي للسامية"، حيث يوجد أطفال يحملون "بوضوح أجندة مناصرة للإسلام" ويلعبون الألعاب الخاصة بالحرب. وسخرت جيلير وهي تقول: "رأيت مقالة واحدة على الأقل تحتوي صوراً لفصول الصيف السابقة مع أعزَّائهم الصغار ومدرِّبيهم وقد قاموا بجمع معروضات تُقرِّع إسرائيل"[40]. وحتى في خضم المأساة، لم تتمكن جيلير من مقاومة الرغبة في الانغماس في شيء من العنصرية المَحضَة، وخصوصاً أنَّ الشبيبة-الذين ظهروا في صورة جماعية على موقعها الإلكتروني-كانوا وفقاً لادِّعاءاتها معادين للسامية وتميل ملامحهم "أكثر لكونها شرق أوسطية أو مختلطة من كونها نرويجية خالصة". لقد كانوا من الشريحة التي لم يكن من المفترض أن تكون هناك وفقاً للرجل الذي أجهز عليهم. وبرَّرت جيلير الفعل وهي تقول: إنَّ "بريفيك كان يستهدف قادة المستقبل الذين يمثِّلون الطرف المسؤول عن اكتساح المسلمين للنرويج ممن يرفضون الاندماج، والذين يرتكبون أعمال عنف كبيرة ضد المواطنين النرويجيين الأصليين، بما في ذلك الاغتصاب الجماعي العنيف، مع الإفلات من العقاب، والذين يعيشون على الإعانة ... وكل هذه الأمور تحصل من دون موافقة النرويجيين "[41]. وإذا لم يكن تصريح جيلير هذا بمثابة دفاع عن بريفيك، فإن ما يثير الدهشة أنّه كان يبدو كذلك.

ومع شعورها بالقلق، بدت جيلير كأنَّها كانت تدرك تماماً أنَّ قربها من مثل هؤلاء الأشخاص الخطرين يمكن أن يورِّطها في مؤامراتهم العنيفة. وعندما بدأت وسائل الإعلام بفهم علاقة جيلير بالموضوع وتقديم تقرير عن تأثيرها فيه، هرعت جيلير إلى مدوّنتها وقامت بحذف أية تصريحات يمكن أن تؤدّي إلى إدانتها. وقبل أربع سنوات، في شهر يونيو (حزيران) من العام ٢٠٠٧، قامت بنشر مادّة نبوئية غريبة عنوانها "بريد إلكتروني من النرويج". وكان المؤلف-الذي أخفت جيلير هويته-قد

عبّر لها بصورة شخصية عن مخاوفه، معرباً عن أسفه لما رآه زيادة في عدد المسلمين النرويجيين. وعن طريق الاستشهاد بسلسلة من الاتجاهات الديموغرافية التي لا أساس لها (مثل "أصبحت عاصمة البلاد نصفها من المسلمين فعلاً)، فقد أشار المؤلف إلى أنَّ هجوماً إسلاميّاً على إسرائيل من شأنه أن يُحفِّز جميع المسلمين في جميع أنحاء العالم، بحيث تتملكهم نوبة من الجنون يقومون على إثرها بمهاجمة كل من حولهم. وكتب الرجل من أوسلو قائلاً: "إنّنا ندخل عصراً ذهبياً جديداً لشعبنا، ولعدد من الدول الأخرى، ولكن فقط من خلال النضال. لا تخافي أبداً يا باميلا. إنَّ الله معك أيضاً في هذه المرحلة القادمة"[42]. وكانت جيلير قد أشادت "بحقائق الرجل" التي لا يمكن إنكارها.

وعلى أية حال، فقد غاب عن نسخة البريد الإلكتروني التي ظهرت على مدوّنتها في يوليو (تموز) ٢٠١١، السطر التالي الذي كان موجوداً في المراسَلة الأصلية: "إننا نقوم بتخزين الأسلحة، والذخائر، والمعدَّات، إذ إنَّ الأمر سيحدث بسرعة".

لقد كانت الكلمات الخمس عشرة المخفية في منتصف المذكَّرة التي أُرسلت إلى جيلير بمثابة الشارة التي تهدف للتدمير. وعلَّق أحد القراء موضحاً أنَّ السلطات النرويجية يمكنها مقاضاة المؤلف بموجب قوانين خطاب الكراهية. "نعم"، أجابت جيلير، "ولهذا السبب قمت بنشر التعليق بدون ذكر اسم المرسل"[43]. وإذا كان التعليق لم يأت من بريفيك، فإنَّ ذنب جيلير يصبح أعمق من القاعدة الأيديولوجية التي قدَّمتها. ومع ذلك، وبغض النظر عن هوية المهووس الغامضة، فإنها كانت تعرف أنَّ الخوف من المسلمين في أوروبا-وهو الخوف الذي ساعدت في تعزيزه عن طيب خاطر، قد أثار في شخص واحد على الأقل هوساً شديداً، لدرجة أنَّه وجد في العنف المسلح الحل العقلاني الوحيد له.

إنَّ تحوّل مسار بريفيك من شخص يقضي ليلة يوم السبت في المنزل إلى قاتل ماكر قد تقاطع مع احتفالات نشطاء آخرين من المتوجّسين من الإسلام، وكانت الصليبية النشطة والمقدامة بريجيت غابرييل واحدة منهم. وقد جرت الإشارة في الفصل السادس من بيان بريفيك إلى مقابلة مصوّرة مع مؤسِّسة منظمة "تحرّكوا! لأجل أمريكا" ACT! For America، وذلك في العام ٢٠٠٤، حيث صرَّح بريفيك عن اعتقاده بأن المجتمع المسيحي في لبنان–وهو المجتمع الذي تزعم غابرييل أنها تنحدر منه–أصبح على وشك الانقراض. وكانت غابرييل قد تحدَّثت في المقطع عن حكايات مروعة تعرَّضت لها خلال الحرب الأهلية في البلاد، وقد شكَّلت هذه الحكايات–التي ملأت المقطع الذي كانت مدته حوالي ٤٥ دقيقة–المادة الرئيسة في مناظراتها، وقد أثبتت لبريفيك أن الشعوب الإسلامية "تفضِّل الحرب على الحوار"[44].

وكان بريفيك قد تأثَّر أيضاً بفيلم "الهوس"، وهو الفيلم المعادي للمسلمين الذي أنتجته مجموعة مستوطنة إسرائيلية متطرفة تحمل اسم "نار التوراة" أيش ها توراه Aish HaTorah. وذكر بريفيك سبعة من بين "الخبراء" السبعة عشر في الفيلم، كما قام بتزويد الروابط لجميع الأجزاء العشرة للفيلم الوثائقي على موقع يوتيوب[45]. لقد كانت حماسته متوقعة، ولا سيما بالنظر إلى أنّ فيلم الرعب كان من عمل الصهاينة الدينيين من المحافظين المتشدّدين. لقد كان بريفيك يشاركهم حبهم لإسرائيل، تماماً كما كان يشاركهم كراهيتهم للإسلام، ومقتهم لليهود الليبراليين. وكتب قائلاً: "الرجاء معرفة الفرق بين اليهودي الذي يؤمن بالتعددية الثقافية ويدمِّر الأمة، وبين اليهودي المحافظ ... أبداً لا تقوموا باستهداف يهودي لأنه يهودي، وإنما لأنه من فئة الخونة A أو B". وأضاف: "دعونا نقاتل جنباً إلى جنب مع إسرائيل، مع إخوتنا الصهاينة ضد مناهضي الصهاينة جميعهم، وضد كل الماركسيين المتثقّفين أو المؤمنين بالتعددية الثقافية"[46].

وعندما سُئل مؤسِّس مركز السياسة الأمنية فرانك جافني–الذي ذكره بريفيك سبع مرات في دليل معركته–عن شعوره حيال استخدام كتاباته لغايات عنيفة، أشار إلى واحدة من مؤامراته المعتادة. وبدأ بالقول بأنَّ البيان، على أية حال، قد لا يكون من عمل بريفيك. وتابع قائلاً إنَّ الوثيقة قد تكون مجرد خدعة زرعها المسلمون الذين كانوا يأملون في تطبيق الشريعة الإسلامية. وأضاف قائلاً: "إنَّ الأمر يستدعي إجراء تحقيق شامل حول ما إذا كانت الكتابة حقّاً أصيلة من تأليفه، أو كانت واحدة من العمليات المخادعة، أو كان الهدف منها في الواقع أن تفعل أي شيء آخر باستثناء المساهمة في جهود الشريعة في قمع النقد والوعي الخاص بأجندتها". أمّا السؤال: هل يمكن أن يكون الإخوان المسلمون وراء هذه الخديعة المزعومة؟ فكان جواب جافني: "بالتأكيد"[47].

* * *

إنَّه لمن المحتمل أن يكون بريفيك قد استفاد من كتابات فريق مترابط جيداً من الأمريكيين المتخوِّفين من الإسلام، إلاّ أنَّ قارته الأم قامت أيضاً بتوفير الأرض الخصبة لتغذية حساسيته المدمرة. كانت أوروبا معبّأة بالمشاعر المعادية للمسلمين، وكان التقاطع الحاد بين الدين والسياسة قد خلَّف جروحاً عميقة في النسيج الاجتماعي لمجتمع متنوع، ولكنه منقسم على نحو متزايد.

ولم تكن مشاعر الخوف من الإسلام في أوروبا كما هي الحال في الولايات المتحدة، أو في أي مكان آخر، فقد كانت ذات نكهة مختلفة، على الرغم من أنها كانت على ذات القدر من الحدَّة. وقد أدّى الخوف من الإسلام والمسلمين في عدد من الدول في أنحاء القارة إلى انتشار الطابع المؤسَّسي للسياسات العنصرية الحكومية. ولم تكن المشاعر المعادية للمسلمين فقط عبارة عن شعور يضمُّ أجزاء محدّدة من الشعب، بل

كانت تطبيقاً عمليّاً ترعاه الدولة، ويهدف إلى محو الروايات الخاصة بالتعدّدية الثقافية التي تبلورت مع وصول حشود المهاجرين، وإلى إعادة أوروبا البيضاء المسيحية إلى القمة.

أمّا في سويسرا، فقد جرى حظر المآذن في العام ٢٠٠٩، وهي الأبراج التي ينطلق منها الأذان لإعلان وقت الصلاة. وعلى الرغم من أنَّ الدستور السويسري يكفل الحرِّية الدينية، وعلى الرغم من الحقيقة أنَّ عاصمة التزلج الأوروبية الخضراء لطالما تمتَّعت بشهرة خاصة بالتسامح الديني، إلاّ أنَّ اللاعبين السياسيين في اليمين المتطرِّف وجدوا في المآذن تهديداً للقيَم السويسرية. وقد انتشرت في جميع أنحاء المدينة ملصقات تُظهر هياكل سوداء تشبه الصواريخ وهي تخرج من راية البلاد، بالإضافة إلى ملصقات تُظهر امرأة وهي ترتدي النقاب، إذ تُعدُّ هذه الدعاية جزءاً من حملة لإثارة الخوف من الإسلام والمضيِّ قُدُماً في خطة لحظر الأبراج في المستقبل[48]. والأمر الذي يدعو للسخرية هو أنَّه لم يكن هناك في سويسرا سوى أربع مآذن فقط، ولم يكن أيٌّ منها يُستخدم للأذان. ومع ذلك، ومن وجهة نظر الشعب السويسري، فإنَّ المَعلَم الإسلامي في السماء الذي بدا غير منسجم مع العمارة الأوروبية المحيطة به، كان يُشير بصمت عن وجود مذكِّرٍ قوي ومخيف أنَّ الإسلام يُعدُّ جزءاً دائماً من المشهد الديني.

وبعد ذلك بعامين، سنَّت الحكومة الفرنسية سياسة مثيرة للجدل على نحو مشابه، حيث منعت النساء المسلمات من ارتداء النقاب في الأماكن العامة. وكان القرار الأول من نوعه الذي يفرض قيوداً على الملابس الشخصية. وفي حين كانت المآذن في سويسرا تُعدُّ هياكل رمزية، فقد رأى بعض المسلمين أنَّ الحجاب واجب ديني. وقد لقي هذا الإجراء شعبية واسعة في البرلمان الفرنسي، حيث لم يتلقَّ سوى تصويت معارض واحد فقط. وقد عمَّت لدى الجمهور المخاوف حيال تراخي قبضة فرنسا على الوحدة

الوطنية، وحيال صورتها العلمانية، حيث أظهر استطلاع للرأي أجرته صحيفة لوموند والمعهد الفرنسي للرأي العام Institut Francais d'Opinion Publique (IFOP) في يناير (كانون الثاني) من العام ٢٠١١، أي قبل ثلاثة أشهر من دخول الحظر حيز التنفيذ، أنَّ ٦٨ ٪ من المواطنين الفرنسيين يعتقدون أن المسلمين "لم يندمجوا جيداً في المجتمع"[49]. وذكر ٥٥ ٪ إلى أنَّ "ظهور الإسلام واضح جدّاً"، كما أشار ما يقرب من ٦٠ ٪ إلى أنَّ المشكلة سببها الرفض من جانب المسلمين للاندماج في المجتمع الفرنسي[50]. وقد أُعلن عن أعداد مماثلة أيضاً في ألمانيا، حيث عبَّر ٧٩ ٪ من الذين شملتهم الدراسة في استطلاع بيو للأبحاث عن تصعيد إضافي حيال عدائهم للإسلام وذلك عن طريق وصفه بأنَّه "الدين الأكثر عنفاً"[51].

وبالسير على خطى فرنسا، قامت بلجيكا بسنِّ قانون يحظر النقاب في الأماكن العامة. وعندما جرى سنُّ القانون بالكامل في شهر يوليو (تموز) ٢٠١١، جاء ذلك تتويجاً لنضال البلاد الطويل مع الهجرة والهوية. ولم يكن هناك ما يثير الدهشة حيال وصول هذه الدولة في أوروبا الغربية-التي تشتهر بالفطائر والشوكولاتة-إلى هذه السياسة. وعلى غرار جيرانهم الأوروبيين، كان البلجيكيون إلى حد كبير يتبنّون وجهات نظر سلبية عن الأجانب. وتتصدر بلجيكا قائمة البلدان التي يكره سكانها الهجرة، حيث كان هناك نسبة مذهلة بلغت ٧٢ ٪ من المواطنين البلجيكيين الذين ذكروا أنَّ الهجرة "كان لها تأثير سلبي في العموم" على بلادهم[52]. ومن الغرابة بمكان، أنَّ النرويج الذي يُعدُّ موطن آندريز بريفيك كان حظر المآذن والحجاب فيه متواضعاً بالمقارنة مع وحشية بريفيك المُفرطة، حيث أشار استطلاع للرأي أجرته صحيفة أوسلو في العام ٢٠٠٩ أنَّ ٥٤ ٪ من النرويجيين يعارضون حظر المآذن[53]. وفي أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١١، أي بعد ثلاثة أشهر من جرائم القتل التي ارتكبها بريفيك،

كشف استطلاع نورستات Norstat أنَّ ٢٤ بالمئة فقط يعتقدون أنَّ الإسلام يُعدُّ تهديداً للثقافة النرويجية، وكان ٤٢ ٪-على وجه الخصوص-لا يعارضون أن يتزوَّج أحد أفراد الأسرة من مسلم[54].

ومع ذلك، فقد كان الخوف من الإسلام أمراً سائداً بقوة، إذ إنَّه لم يكن يعرف المحرَّمات الخاصة بالصواب السياسي التي تعرَّضت لها العنصرية وكراهية الأجانب في وقت من الأوقات. وكان ظهوره في الحكومة وتأثيره في الجمهور يمثِّل صعود جيل جديد ضمن اليمين الأوروبي الذي تميَّز باتحاد المتعصِّبين التقليديين وفريق معاصر من الشعوبيين الذين سئموا من قارَّتهم المتغيِّرة[55].

ومن وجهة نظرهم، فإنَّ أوروبا أضحت غير مألوفة على نحو متزايد، حيث ازداد عدد المسلمين فيها من حوالي ٣٠ مليون شخص في العام ١٩٩٠ إلى ٤٤ مليوناً في العام ٢٠١٠. أمَّا في فرنسا، فقد أصبح المسلمون يُشكِّلون ١٠ في المئة من عدد السكان وفقاً لمركز بيو للأبحاث، ومن المتوقع أن يُشكِّل المسلمون بحلول العام ٢٠٣٠ ثمانية بالمئة من سكان أوروبا[56]. وقد اقترح بعضهم أن يكون هناك علاقة سببيَّة بين هذه الأرقام وبين تنامي المشاعر المعادية للمسلمين والمناهضة للهجرة. وبحسب الرواية، فإنَّ انتصارات السياسيين من اليمين المتطرف كانت ببساطة مسألة حملات تسعى للاستجابة على نحو فعال للمخاوف المنتشرة لدى الجمهور. وفي حين قد يكون الأمر كذلك، إلاّ أنَّ هذا الأمر لا يُشكِّل سوى جزءاً من القصة، إذ إنَّ معارضي التغيير من اليمين يقومون بما هو أكثر من استغلال المخاوف القائمة حيال الإسلام والمسلمين، حيث إنهم يعملون على تصنيعها.

* * *

إنَّ أول شيء يمكن ملاحظته عادة حول جيرت فيلدرز Geert Wilders–الزعيم البالغ من العمر ٤٨ عاماً من حزب هولندا من أجل الحرية–هو مقدّمة شعره الأشقر المتموّج الذي ينبثق مباشرة من فروة رأسه وتجعله على هيئة عالمٍ أو مؤلف موسيقي مجنون، ولذلك فإنه ليس من المستغرب أن تكون تسريحة شعره الضخمة قد منحته لقب الموسيقي الشهير "موتسارت" Mozart. وكان فيلدرز يتمتع بشخصية جذَّابة، ولسان فصيح، واهتمام قوي في إثارة الكراهية من الإسلام، وكان ينتهج خطّاً سياسياً لا يدركه سوى عدد قليل من الناس في وطنه الهولندي[57]. وإنه من المرجح أن يقوم بشجب المؤسسة السياسية في هولندا بذات القدر الذي يعلن فيه باندفاع أنَّ المسلمين الذين يرغبون في البقاء في البلاد يجب عليهم أن "يمزِّقوا نصف القرآن"، الذي يصفه بأنَّه "كتاب فاشي" ينبغي العمل على حظره[58].

وفيلدرز هو الشخصية المركزية في الحركة القارِّية التي كانت تختمر في أوروبا لفترة من الزمن. وتتألف هذه المجموعة من لفيف من السياسيين والنشطاء الغاضبين الذين يشقّون طريقهم بجرأة نحو ساحة تقريع المسلمين، ويصورون أنفسهم على أنهم من الناس العاديين الذين سئموا من القيود المفروضة على الصواب السياسي واللياقة المتوقعة من المسؤولين المنتخبين عادة. إنها انتفاضة شعبية من نوع ما، وتستند فقط على الادِّعاء بأن أوروبا والعالم الغربي الأكبر هم عرضة للخطر المتمثِّل بحقنهم بسموم الإسلام، وتحظى الانتفاضة هذه بقدر من الاهتمام. وكان حزب فيلدرز "من أجل الحرية"–الذي تأسَّس في العام ٢٠٠٥–قد فاز بتسعة مقاعد في الانتخابات العامة لعام ٢٠٠٦، الأمر الذي جعله خامس أكبر حزب في البرلمان. وفي العام ٢٠٠٩، جاء في المركز الثاني بعد فوزه بـ ٤ مقاعد من أصل ٢٥ مقعداً، وفي العام التالي، أي في الانتخابات العامة لعام ٢٠١٠، انتزع ٢٤ مقعداً ما جعله ثالث أكبر حزب في هولندا.

وقد ترافق مع هذا النجاح برنامج عمل تميَّز بالصرامة، حيث أشار فيلدرز قائلاً: "إنَّنا نرغب أن نحكم"، وأضاف قائلاً: لقد "صوَّت ١,٥ مليون شخص لصالحنا، وتهدف خططنا لمزيد من السلامة، وتراجع في الهجرة والإسلام. لقد حقَّقنا النصر الأكبر، ولا يمكنهم أن يتجاهلونا، ونحن نريدهم أن يأخذونا على محمل الجد"[59]. لقد كان النصر الذي حقَّقه فيلدرز جدِّياً للغاية ما دفعه للإعلان أنَّ معركته ضد الإسلام لن تكون مجرد مسعىً هولندياً وإنَّما حملة في جميع أنحاء العالم. ولكي يقيم العوائق أمام الشريعة الإسلامية ويوقف هجرة المسلمين إلى الدول الغربية، كان فيلدرز يخطط لتشكيل تحالفات مع الجهات الفاعلة الرئيسة في موضوع كراهية الإسلام في كلٍّ من الولايات المتحدة وبريطانيا. وقال فيلدرز: "إنَّ الرسالة: 'أوقفوا الإسلام، ودافعوا عن الحرية'، هي رسالة ليست مهمة فقط لهولندا وإنَّما للعالم الغربي الحر بأسره". وأضاف: "إنَّ الكفاح هو من أجل الحرية و[ضد] الأسلمة لأنني أرى الأمر على أنَّه ظاهرة ومشكلة عالمية يجب السعي لحلِّها[60].

وكانت محطة فيلدرز الأولى-على نحو ملائم بما فيه الكفاية-في مدينة نيويورك، حيث كانت باميلا جيلير تنظِّم مسيرة معارِضة لإنشاء المركز الاجتماعي المعروف باسم بارك ٥١، وذلك في الذكرى التاسعة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وكان النقاش المدوّي-الذي تردَّدت أصداؤه في جميع أنحاء العالم بما في ذلك هولندا-قد جذب فيلدرز الذي كان يشعر بالارتياح بوجود الجدل، إذ إنَّ سياساته كانت تزدهر في بيئة كهذه.

وقامت جيلير بتقديم السياسي الهولندي أمام حشد صاخب، وقالت: لقد "جاء مباشرة من هولندا". لقد كانت مصابة بالدّوار بينما كان فيلدرز يتقدَّم ببطء نحو خشبة المسرح من خلفها ما جعلها تختصر خطبتها. وصرخت جيلير وهي تستدير

لتعانقه وهي تقول: "يا إلهي"، وأضافت: "اسمعوا، سوف أقطع تقديمي ولكن هذا الرجل هو بطلي. إنَّه جيرت فيلدرز"! وبدا فيلدرز المعروف بأسلوبه الهادئ غير آبهٍ للصراخ والتصفيق. وانحنى باتجاه الميكروفون وافتتح كلمته بعبارة أشعلت استجابة إيجابية من الجمهور، حيث قال: "أيّها السيدات والسادة، اسمحوا لي أن أبدأ بالقول *لا مسجد هنا*"![61]

وكان فيلدرز قد حاضَرَ لمدة ١٥ دقيقة عن "مسجد الطابق صفر" Ground Zero mosque المزعوم مستخدماً الخطاب الطنّان المعتاد الخاص بصناعة الخوف من الإسلام. وأشار إلى أنَّ المركز سيكون داراً للشريعة، وتدنيساً لأرض مقدَّسة، ومركز قيادة لهجمات إرهابية في المستقبل. ولم تكن الصور التي استحضرها خطابه قد جلبت شيئاً جديداً إلى الأذهان، وكذلك لم يفعل مضمون رسالته. وعوضاً عن ذلك، فقد كان الخطاب عبارة عن تكرار لرواية مخيفة جرى زرعها في أذهان الأمريكيين والأوروبيين مراراً وتكراراً، أي: الفوضى، والدمار، والاضطراب على أيدي وحوش المسلمين.

لقد كانت قدرة فيلدرز على إثارة الكثير من الخوف في مدة ربع ساعة من الزمن أمراً مثيراً للإعجاب. ولكنه كان قد مارس هذا الأمر من قبل، حيث سافر في العام السابق إلى الولايات المتحدة ليقوم بالترويج لجنون الاضطهاد. وخلافاً للخطاب الذي ألقاه في مانهاتن أمام حشد غاضب من المتظاهرين، فإنَّ رحلة فيلدرز في العام ٢٠٠٩ عبر المحيط الأطلسي قد أوصلته إلى الركن الشمالي الشرقي لمبنى الحكومة الأمريكية (الكابيتول)، حيث اجتمع مع جمهور الكونغرس في غرفة ليندون جونسون بهدف إجراء عرض خاص لفيلمه المعادي للمسلمين الذي كانت مدَّته ١٥ دقيقة وكان تحت عنوان "فتنة"، وهي كلمة عربية بمعنى "الاضطراب". وكان السيناتور

الجمهوري عن ولاية أريزونا جون كايل John Kyl قد قام باستضافة هذا الحدث، وجاء تحت رعاية مركز فرانك جافني للسياسة الأمنية[62].

وكان فيلم فيلدرز مليئاً بالصور المرعبة والمقاربات البغيضة، حيث كان هناك أجساد مضرَّجة بالدماء وقد قام الإرهابيون بتقطيع أوصالها، كما كان هناك إشارة إلى تشويه الأعضاء التناسلية للإناث، واقترنت تلك الصور بآيات منتقاة من القرآن الكريم. لقد كانت بعض المشاهد استفزازية للغاية حيث دعا سفراء ٢٦ دولة ذات غالبية مسلمة إلى حظر ذلك الفيلم[63]. وأشار رئيس الوزراء الهولندي إلى أنَّ الفيلم "لا يقدِّم أيَّ هدف آخر سوى الإساءة"، في حين وصف الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون الفيلم بأنَّه "معاد للإسلام على نحو مسيء"[64]. وجاء ظهور فيلدرز في مبنى الحكومة الأمريكية (الكابيتول هيل) بعد شهر واحد فقط من قرار إحدى المحاكم في أمستردام بمقاضاة فيلدرز بموجب القوانين الهولندية المتعلقة بخطاب الكراهية، وذلك بسبب "إهانة" المسلمين و"نشر الكراهية" ضدهم (وكان منتدى الشرق الأوسط، بقيادة زعيم الخوف من الإسلام، دانيال بايبس، قد تكفَّل بدفع تكاليف القضية لـ فيلدرز).

وكان فيلدرز–قبل أسبوع واحد من ظهوره في واشنطن–قد مُنع من دخول المملكة المتحدة، حيث كان يعتزم عرض فيلم مماثل هناك. وكان فيلدرز قد تلقَّى دعوة من اثنين من السياسيين البريطانيين المحافظين بهدف عرض فيلمه في مجلس اللوردات، ولكنه وقبل رحيله من هولندا بفترة وجيزة، تلقَّى رسالة من مسؤولي الهجرة الذين حذَّروا من أن وجوده من شأنه " أن يشكِّل تهديداً حقيقياً وخطيراً بما فيه الكفاية... لحالة الوئام في المجتمع وبالنتيجة لوضع الأمن العام في المملكة المتحدة". وعلى أية حال، فقد استقل الطائرة ووصل إلى مطار هيثرو فقط ليجد حشداً من الصحفيين

الذين تلقّوا بلاغاً منه مسبقاً. وعندما جرى إبعاده وإجباره على العودة إلى بلاده، نظر إليه بعضهم في اليمين على أنَّه بطل من أبطال حرية التعبير[65].

وتعتمد سياسة فيلدرز على عنصر الإثارة بهدف الترويج للذات. وفي الواقع، لو لم يكن قد ربط موضوع الإسلام بقوة إلى محور حياته السياسية، فلربما كان قد توجَّه ببطء إلى غياهب النسيان حيث يوجد البرلمانيون الأوروبيون العاديون. وقد كان الحصول على مبلغ عشرين ألف دولار مقابل كل خطبة يلقيها–وهو المبلغ الذي كان يدفعه رئيس روبرت سبنسر وكفيله ديفيد هورويتز–أمراً منطقيّاً للغاية[66]. وهكذا، فقد ركب فيلدرز على متن العربة المعادية للإسلام التي أوصلته إلى النجومية. وقد كشف تقرير صادر عن جهاز رصد الأخبار الهولندية في شهر أبريل (نيسان) من العام ٢٠٠٨ عن مهارته في اصطياد القضايا المثيرة للجدل لتحقيق مكاسب شخصية:

> في الفترة الواقعة ما بين الإعلان في نوفمبر (تشرين الثاني) من العام ٢٠٠٧، و٢٧ مارس (آذار) ٢٠٠٨، وهو اليوم الذي وضع فيه فيلدرز فيلم 'فتنة' على شبكة الإنترنت، تطورت الحالة لتصبح حدثاً إعلاميّاً ملحوظاً ... وأشار فيلدرز إلى أنَّ الفيلم سيجري عرضه على شاشة التلفزيون في شهر يناير (كانون الثاني). وفي نهاية المطاف، لم يتحقق الأمر، إذ استمرَّ السياسي بتأجيل 'إطلاق' الفيلم 'فتنة' مراراً وتكراراً. ومع ذلك، لم يتلاشى الاهتمام به، حيث منذ ذلك الحين، أصبح فيلدرز، وفيلم 'فتنة'، والإسلام يُشكِّلون الأساس لحوار شرس وسلبي للغاية في المجتمع الهولندي و–بالنظر إلى الوظيفة الديمقراطية للصحافة –في وسائل الإعلام[67].

وبعد يوم واحد من العرض الأول للفيلم، كشفت إحدى مؤسَّسات استطلاع الرأي الهولندية، وهي بيل Peil، أنَّ ما يقرب من نصف أولئك الذين شاهدوا الفيلم رأوا أنَّ الفيلم كان صحيحاً. وإذا كان فيلدرز يأمل في الحصول على دعم شعبي، فقد تحقق له ذلك، حيث أصدرت وكالة موريس دو هوند Maurice de Hond دراسة تبيِّن

فيها أنه إذا قام فيلدرز بالترشح لمنصب الرئاسة بعد يوم واحد من رواج فيلم "فتنة" على شبكة الإنترنت، فإنَّ حزبه كان ليكتسب ستة مقاعد أكثر مما حصل عليه خلال الانتخابات السابقة[68].

ولم يكن هذا الفيلم هو السبب وراء بروز فيلدرز في اليمين السياسي الأوروبي. ووفقاً لمجلة فريي نيديرلاند Vrij Nederland الهولندية، فإنَّ السبب يعود كُلِّياً إلى فيلم آخر كان قد حمل عنوان "الهوس"، وهو الفيلم المعادي للإسلام الذي أنتجته مجموعة الاستيطان الإسرائيلية المتطرفة "نار التوراة" Aish HaTorah.

وفي مقال نُشر في شهر أكتوبر (تشرين الأول) من العام ٢٠٠٩، أشارت المجلة إلى أوجه التشابه بين الفيلمين، وذكرت أنَّ فيلم "الهوس" لم يكن فقط مُدرجاً في فقرة الثناء في فيلم فيلدرز، بل إنَّه بعد التدقيق لكلِّ لقطة من الفيلم تبيَّن أنَّ فيلدرز على ما يبدو قام "بنسخ مشاهد بأكملها". وتظهر في كلا الفيلمين فتاة مسلمة وهي ترتدي الحجاب وتصف اليهود بأنَّهم "قردة وخنازير". أمَّا الصور التالية، فإنَّها تَظهر بالترتيب التسلسلي نفسه: أي جثة متفحمة، ورجل عارٍ يجري سحبه على الأرض، وصليب مسيحي يجري نزعه من إحدى الكنائس، ومقاتلين ملثَّمين يقومون بتقديم التحية النازية. وأشار وين كوبينغ Wayne Kopping مخرج فيلم "الهوس" قائلاً: "أعتقد أنَّ فيلدرز قد شاهد فيلمنا على أقراص الـ DVD أو الإنترنت"، وأضاف: "لقد 'انتزع' مشاهد من فيلم "الهوس" وقام باستخدامها ، لدرجة أنَّه استخدم في فيلمه "فتنة" العناوين والموسيقى الخاصة بنا.

وكان كوبينغ قد أصرَّ على أنَّه لم يلتق فيلدرز قط، وأنَّه على الرغم من أوجه الشبه التي لا يمكن إنكارها، فإنَّ هذا الأمر لا يشكِّل له أيَّة مشكلة. وأشار قائلاً: "لماذا يجب أن أغضب؟ فنحن لسنا من نملك مادة الفيلم"، وأضاف: "والأهم من

ذلك، هو قول الحقيقة ... إذ إنَّ أفلاماً مثل 'فتنة' و'الهوس' هي بمثابة دعوة لليقظة". وكان إيتامار ماركوس Itamar Marcus–وهو مدير مراقبة "وسائل الإعلام الفلسطينية" التابعة لجماعة مراقبة موالية لإسرائيل التي كانت أيضاً وراء فيلم "الهوس"–قد أبدى امتعاضه حيال قيام فيلدرز بحذف بعض المواد من الفيلم، وقال: "يمكنني أيضاً أن أميِّز صوراً من فيلم "فتنة" كانت قد ظهرت أيضا في فيلم "الهوس" ... وكما فعل آخرون كُثر، فإنَّ فيلدرز لم يكلِّف نفسه عناء التواصل معي. كما أنَّ الصور التي عملنا على أرشفتها كانت تعمُّ أنحاء العالم أجمع". ومع ذلك، فإنَّ حقيقة أنَّ السياسي الهولندي كان يسعى لترويج رواية مؤيدة لإسرائيل ومعادية للمسلمين على نحو مؤكد، كان أمراً كافياً لتبديد مخاوفه. وقد أشار قائلاً: "هذا مناسب"، وأضاف: "إنه لأمر جيد أن يكون فيلدرز بمثابة جرس التنبيه "[69].

لقد استجاب آنديرز بريفيك لذلك التنبيه، حيث ذكر فيلدرز وفيلمه "فتنة" في بيانه ٣٠ مرة، وكان يأمل أن يلتقي السياسي في إحدى المناسبات[70]. وكما فعل مع روبرت سبنسر، فقد رأى القاتل أنَّ فيلدرز يستحق الفوز بجائزة نوبل للسلام[71].

* * *

تتبع أوروبا عادة ذات النهج الذي تتبناه بريطانيا، هذا إذا لم نجزم أنَّ الخوف من الإسلام يتميَّز بنكهة بريطانية على نحو خاص. ولكن صعود اليمين في لندن وغيرها من المدن قد أثار غضباً عنيفاً حيال موقع المهاجرين في المجتمع الأوروبي. وقد كشفت دراسة أجراها "صندوق مارشال الألماني لأجل أمريكا" German Marshall Fund for America، على سبيل المثال، أنَّ القلق إزاء الهجرة في المملكة المتحدة هو أعظم من أي مكان آخر في القارة. وكانت نهاية العام ٢٠١٠، وفي شهر سبتمبر (أيلول) بالتحديد، قد شهدت ولادة أكبر تدفق للأجانب في تاريخ بريطانيا حيث وصل العدد

إلى ٥٨٦,٠٠٠ مهاجر[72]. ووفقاً لمركز بيو Pew للأبحاث، فقد كان من المتوقع أن يُشكِّل المسلمون أكثر من ربع العدد الإجمالي للمهاجرين إلى بريطانيا في تلك السنة[73]. ومنذ العام ٢٠٠١، ازداد عدد المسلمين بنسبة ٧٤ بالمئة، وذلك من ١,٦٥ مليوناً إلى ٢,٨٧ مليوناً، ولم تكن هذه الطفرة السكانية موضع ترحيب.

وقد أشار أحد استطلاعات الرأي إلى أنَّ أكثر من ٥٢ في المئة من المشاركين بالاستطلاع من البريطانيين البالغ عددهم ٥٠٠٠ شخصاً يعتقدون أن المسلمين قاموا بافتعال المشاكل في بلادهم[74]. أمّا لورين كولينز Lauren Collins من صحيفة "ذا نيويوركر"، فقد أفادت بأنَّ "الصحف مليئة بقصص تتحدّث عن فقدان طريقة الحياة البريطانية، وخاصة مع وجود ما يُفسدها مثل اللحم الحلال والنِّقاب"[75]. ولكي يجري الحفاظ على المجتمع البريطاني مما يرونه أنَّه عصابة غوغائية ومتعاظمة من المسلمين الذين يسعون إلى تحويل مدينة "الدخان القديم"-أي لندن-إلى الخلافة الخضراء، قامت مجموعة من قطاع الطرق التي تتألف في الغالب من الرجال البيض الموشومين، وحليقي الرأس بالتوجُّه إلى الشارع وتبنّي وضعية قتالية.

وكانت "رابطة الدفاع الإنجليزية" English Defence League (EDL)-التي تشكَّلت في العام ٢٠٠٩-تتألَّف من فرقة متماسكة من البلطجيَّة، وقد وحَّدهم حبهم لكرة القدم، وولعهم بالجينز الأبيض المغسول والقمصان التي تُظهر العضلات، وكراهيتهم المتعنِّتة تجاه المسلمين. وتدَّعي المجموعة أنها ليست مجموعة عنصرية وأنّها رحَّبت باليهود، والسود، والمثليين جنسيّاً، وغيرهم من الأقليات، لكي يشاركوا على نحـو فعّال في مناسباتها ما دام أنَّهم يؤكدون على التزامهم بمضايقة المسلمين. وغالباً ما تأخذ اعتداءاتهم طابـع الشِجار بعد المدرسة في موقف السيارات، حيث يقوم الأعضاء الهائجون بترتيب لقاءاتهم عبر البريد الإلكتروني أو الرسائل النصِّية (والمجموعة

لا تحتفظ بقوائم رسمية)، وتتِّجه إلى المكان المتفق عليه لتعيث فساداً مؤقتاً حتى تقوم الشرطة في النهاية بإجبارهم على الرحيل. وخلال إحدى المظاهرات في مدينة ليستر Leicester في شهر أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١٠، اقتحمت مجموعة منشقة عن "الرابطة" صفوف الشرطة وتوجَّهت نحو "بيغ جونز Big John's، وهو مطعم آسيوي في المدينة يبيع الطعام الحلال، أي اللحوم المذبوحة وفقاً للطقوس الإسلامية. ووصل الغوغاء إلى متجر الوجبات السريعة الصغير، وحطَّموا نوافذه، واندفعوا إلى الداخل، ما جعل الآباء، والأمهات، والأطفال المسلمين ينتشرون بحثاً عن أماكن يختبئون فيها. وأفاد أحد المراقبين أنَّ "الناس شاهدوهم وهم قادمون فقام أحدهم بإغلاق الأبواب، إلاّ أنَّهم حطَّموا بعض النوافذ، وقام أحد أفراد "الرابطة" بفتح الباب بركلة من رجله، ووقف هناك وهو يهدِّد الناس". وأضاف قائلاً: "لقد كان هناك عائلات فقط في المطعم؛ رجال، ونساء، وأطفال يتناولون الطعام معاً. وكان كل شيء قد انتهى في دقيقة واحدة ولكن الأمر كان مخيفاً للغاية"[76]. وعلى ما يبدو أنَّ فورتهم القصيرة كانت تهدف إلى تخويف أصحاب المتاجر المسلمين وثنيِهم عن توفير احتياجات المجتمع المتزايد. ومن وجهة نظر جيش "رابطة الدفاع الإنجليزية" الموجود في الشارع، فإنَّ محلات اللحوم الحلال والأسواق الإسلامية الأخرى تُعدُّ دليلاً على وجود مشكلة متعاظمة.

وفي شهر مارس (آذار) من العام ٢٠١٠، أقامت "رابطة الدفاع الإنجليزية" تظاهرة أمام مجلس اللوردات دعماً لـ جيرت فيلدرز خلال محاكمته في قضية خطاب الكراهية. وكتبت باميلا جيلير بشوق في مدوِّنتها قائلة: "كم كنت أتمنى أن أكون هناك مع رابطة الدفاع الإنجليزية"[77]. وكتبت في منشور آخر: "إنني أشترك مع "الرابطة" في أهدافها" بحيث "كشفت عن الأساطير" المتعلِّقة بالجماعة التي أحبتها كثيراً[78]. وكان هناك عدد قليل من الأعلام الإسرائيلية ترفرف فوق الحشد خارج البرلمان-حيث

كانت تشكِّل عنصراً رئيساً في اللقاءات الجامحة للمجموعة. وكان المتظاهرون يُطلقون الصيحات، وفي إحدى اللحظات أدَّت مظاهرتهم إلى توقف التدفق في حركة المرور، وذلك عندما جلسوا في الطريق. وعبَّر أحد المناصرين في الرابطة عن غضبه حيال بناء مسجد في حي مجاور، كما أنَّ امتلاك المسلمين لمتاجر في المنطقة كان قد سبَّب انزعاجاً مماثلاً. وفي نهاية اللقاء، هتف أحد المتحدثين في مكبر للصوت قائلاً: "ليبارك الله المسلمين". لقد كانت تلك إشارة غريبة، وعلى ما يبدو أخذت الحشد على حين غرة. ما الذي يقصده متشدد كهذا من أتباع "الرابطة" من خلال طلب الحماية الإلهية لمجموعة من الناس تُعدُّ مكروهة جداً في أوروبا؟ وبعد وقفة قصيرة، أنهى ذلك الشخص جملته قائلاً: "إنهم سيحتاجونها في الجحيم"[79].

وأفاد نشطاء في مجال مكافحة العنصرية في مجموعة تسمى "الكشَّاف" Searchlight بعد وقت قصير من مذبحة أنديرز بريفيك في أوسلو أنَّ الجزَّار النرويجي البالغ من العمر ٣٢ عاماً له صلات عميقة مع "رابطة الدفاع الإنجليزية". ووفقاً لتقاريرهم، فإنّه في التاسع من شهر مارس (آذار) ٢٠١١، قام بريفيك بالدخول إلى منتدى المجموعة على الإنترنت، ونشر رسالة دعم تحت اسم مستعار قائلاً:

> تحية لكم جميعاً أيها الرجال والنساء الإنجليز الطيبون. أردت فقط أن أقول إنَّكم نعمة لجميع الناس في أوروبا. وفي هذه الأوقات المظلمة، فإنَّ كل من في أوروبا يتطلَّعون إليكم ليستمدُّوا الإلهام، والشجاعة، وحتى الأمل لكي نتمكن من تحويل هذه النزعة الشرِّيرة المتمثِّلة بالأسلَمَة في جميع أنحاء قارَّتنا. حسناً، لقد أردت فقط أن أقول لكم استمروا في العمل الجيد، إذ إنَّه لأمر إيجابي أن نرى أشخاصاً آخرين ممن يهتمون ببلدهم وتراثهم. كل التوفيق لكم جميعاً. سيجورد[80].

لقد كان الرابط واضحاً في بيان بريفيك، إذ كتب قائلاً: "لقد كان لديَّ أكثر من ٦٠٠ عضوٍ من أعضاء "رابطة الدفاع الإنجليزية" بصفة أصدقاء على موقع الفيسبوك،

كما تحدَّثت مع عشرات من أعضاء وقيادات الرابطة". وأضاف: "وفي الواقع، كنت واحداً من الأشخاص الذين كان يزوِّدهم بالمواد الأيديولوجية المصنَّعة (بما في ذلك الإستراتيجيات الخطابية) في البداية"[81]. وقد أفاد بعض الأفراد أنَّهم رأوه في مناسبات مختلفة. وعبَّر أحد أعضاء الرابطة من المؤيِّدين عن دهشته في منتدى آخر قائلاً: "يا إلهي ...هو"؟! وأضاف: لقد كتب بعض الكتب وأجرى محادثات، أليس كذلك"؟[82]

* * *

لقد تجلّى الخوف من الإسلام في أوروبا في عدد من المشاهد البشعة في أواخر العقد الأول من العام ٢٠٠٠. ومع ذلك، لم يكن أي منها واسع الانتشار أو شنيعاً كالفعل البائس الذي ارتكبه أنديرز بيرينغ بريفيك خارج البرلمان النرويجي وعلى جزيرة يوتويا، حيث أصبح المناخ المتنامي للخوف والشك من المسلمين محفِّزاً لاحتمال حدوث حالات أخرى من ردة الفعل العنيفة. وفي شهر أبريل (نيسان) من العام ٢٠١١، وهو ذات العام الذي أعلن فيه حزب جيرت فيلدرز عن خطط لإدخال تشريعات تهدف إلى إبعاد ملكة هولندا عن رئاسة الحكومة، كان المصلّون في أحد المساجد المحليَّة في مدينة بروكسل في بلجيكا قد وجدوا رأس خنزير مذبوح وقد دفن تحت الصليب المسيحي. وكان هناك نقش مكتوب عليه عبارة: "محمد يقبع هنا".[83] وكانت تلك الحادثة بمثابة بداية لتوجُّه ما. وبعد ذلك بشهرين، أي في شهر يونيو (حزيران)، وجد المركز البلجيكي لتكافؤ الفرص ومناهضة العنصرية Belgium's Center for Equal Opportunities and Opposition to Racism أنَّ التمييز ضد المسلمين قد وصل إلى مستوى قياسي. وكانت النسبة المذهلة التي وصلت إلى ٨٤ في المئة من حالات التمييز التي وصلت إلى المركز ذات طبيعة معادية للمسلمين[84]. وفي شهر نوفمبر (تشرين الأول) من ذلك العام، استجابت الشرطة في بلدة غريشن Grechen في سويسرا لدعوة أطلقها مسلمون من

موقع أحد المساجد المزمع بناؤها. وكان المخرِّبون قد قاموا بدفن أجزاء من الخنازير في الموقع، ورشقوا ١٢٠ لتراً من دم ذلك الحيوان على الأرض في محاولة لوقف بناء المسجد. وكان المعتدون قد تركوا لافتة كُتب عليها: "لقد نُفِّذت هذه العملية احتجاجاً على التوسع المتزايد للإسلام في سويسرا"[85]. أمّا في فرنسا، فقد تعرَّضت قبور الجنود المسلمين الثلاثين الذين حاربوا في الحرب العالمية الأولى للتشويه، وأُلقي بعضها على الأرض وكُتب عليها بالطلاء عبارة "اطردوا العرب"![86] وفي إنكلترا، تعرَّضت المساجد أيضاً للاعتداء عن طريق الفنانين الذين يكتبون على الجدران، حيث قاموا برسم الصور المهينة على الجدران الخارجية للمساجد. وفي عام ٢٠١٠، شهدت بريطانيا أكثر من ١٢٠٠ اعتداء معادياً للمسلمين، حيث قامت جامعة إكستر Exeter باستخدام هذا الرقم لتشير إلى الزيادة الكبيرة في جرائم الكراهية ضد المسلمين في البلاد:

> لقد كان الأمر واضحاً لدى من جرى مقابلتهم من المطَّلِعين أنَّ المرتكبين الرئيسيين لعدد منخفض من جرائم الكراهية ضد المسلمين هم ليسوا من العصابات، بل مجرد أفراد من مجموعة واسعة من الخلفيات الذين يشعرون بأنَّ لديهم الرخصة للإساءة، والاعتداء، وترهيب المسلمين على نحوٍ يعكس جوانباً من وسائل الإعلام الرئيسة والتعليقات السياسية التي أصبحت شائعة خلال العقد الماضي[87].

أمّا في الولايات المتحدة، فقد أشار مكتب التحقيقات الفيدرالي كذلك إلى وجود ارتفاع هائل في أعمال العنف ضد المسلمين. ووفقاً لتقرير صدر في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام ٢٠١١، فإنَّ الجرائم الموجَّهة ضد الأمريكيين المسلمين قد ازدادت بنسبة ٥٠ في المئة خلال العام الماضي. ومن الجدير بالذكر أنَّ الجرائم ضد المسلمين في الولايات المتحدة كانت قد انخفضت في العام ٢٠٠٩، مما يشير إلى أنَّ مناخ الخوف الذي أنتجته صناعة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، ولا سيما خلال صيف العام ٢٠١٠، كان مسؤولاً عن زيادة الكراهية.